

هُويّة مسروقة

نصوص وقصص قصيرة .

الكاتبة :

رجاء يوسف عبد الشوامرة .

هوية مسروقة

" ليس المهم أن يموت الإنسان، قبل أن
يحقق فكرته النبيلة... بل المهم أن يجد
لنفسه فكرة نبيلة قبل أن يموت"

غسان كنفاني .

إهداء :

إلى تلك الجماجم والأجساد التي لم تحظى
بالقبور...

إلى فلسطين الصامدة...

وأقصانا الجريح ..

هوية مُسروقة

على نقيض تلك العالم المُخيف هنالك هوية
مُسروقة ، وطن ضائع ، أشلاء ممزقة ، أقلام
صامئة الحبر ينزف من كل جانب

يبحث عن فلسطين .

عن فلسطين وحدها .

عن هوية مُسروقة .

لم تكن هوية من ورق وحبر بل تراب وبين
وشجر وحجر ينطق بالحق الذي هم فيه
كارهون .

الخبير الأخير

المرّة الأولى لم أحضر فيها جنازتي ولم أرثي جسدي
العائد من الحروب الثقيلة مع تلك الجموع من الشهداء

..

بالأمس أخبروني وأنا أعد خبراً صحفياً على الإذاعات
التلفزيونية حتى نرى العالم بأننا نموت أفراداً
وجماعات ، بأن نصف من عائلتي ابتلعتهم الغارات
الغادرة في ركن السماء ، والبعض الآخر مزقتهم تلك
الدبابات المصفحة بجلسات الدول العربية الزائفة ،
وبرداء الولايات المتحدة الأمريكية ، التي كانت
تحاصر البيت منذ ساعات طويلة ..

لم أعلم منذ ذاك الحين ، كيف تكون كاميرا ذو تركيب
الالكتروني ، ليست سوى أداء تُكون لي عدواً وحزناً

...

سرقوا الحق والحقيقة ..

سرقوا فلسطين ...

سرقوا العائلة والسلام ..

تصافحوا الأعراب والقنلة ..

هدموا المساجد والمآذن ...

قالوا :

إنني إرهابي !!!!!!!!!!!!!!!

منذ ذاك الوقت، أغلقت الكاميرا القاتلة، أحركتهم
أشلاء أُمي ليُحركهم وجهي المُتعب الذائب كمدًا! ..
جمعت ما تبقى من جسدي، ذهبت أبحث عن تاريخ
آخر بعيداً عن الجدار، القتل، الدمار، والحدود
المصرية، ربما بعيدا عن التاريخ الذي كان يقصه
علينا أستاذ التاريخ بل رواية أخرى..

فلسطين لن تفقد الذاكرة

فلسطينُ الأكثرُ من قلمٍ يغمسُ في دواةٍ حتى يدنو أجلُ
حبره، الأكثرُ من أن تتلاشى في الذاكرة وسط حوادث
دنياً غابرة.. والأكثرُ من الذاكرة نفسها، ثراها مسقي
بمسكِ الدماء، وثريّاها أحرارُ الإماماء.. !

وكنّت أنساءلُ مع نفسي ، ما هي فلسطين بالنسبة إلى
أطفال القرطاس والقلم؟

إنهم لم يقرأوا الكتب ولم يقصص عليهم التاريخ أحداً
!!

لم يتعلموا لغة الحرب والتصويب !!

إنهم يصنعون مظلات تُقيهم من فتنة الصاروخ .

وجنود الجدار ! ومآسي المعابر،

وشماتة الحكام !

أما أحمد..

فَفلَسطينَ عِندَه، عَقِيدَة، تُعَقَدُ فِي القلب، وَتُجَدَلُ بِجَدِيلَة
كَحِيلَة فِي اليَد، إِنْ فَلَسطينَ عِندَه جَدِيرَة بِأَنْ يَحْمِلَ
الْمَرْءُ سِلَاحاً فِي سَبِيلِهَا، ذَاهِباً لِحَتْفِهِ مُبْتَسِماً، وَالْمَوْتُ
يَهْطُلُ وَابِلَهُ.. يَرُدُّ بِرِصَاصِ الحَقِّ القَلِيلِ وَابِلَ
رِصَاصِ الظُّلَمِ الكَثِيرِ.. هُنَاكَ فِي أَقْصَى المَدِينَةِ..
حَيْثُ الغَادِي مَفْقُودٌ وَالْعَائِدُ مَوْلُودٌ.. وَيَا لِلشَّبهِ بَيْنَ
الغَادِي لِأَقْصَى المَدِينَةِ وَالَّذِي جَاءَ مِنْهَا، فَالْآتِي
طَوَى المَسَافَةِ نَاصِراً الرُّسُلَ.. وَالغَادِي طَوَاهَا نَاصِراً
إِرْثَهُمْ.. إِرْثَ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ المُطَّلَبِ.. طَوَى خَبَرِ مَوْتِهِ
فِي شَرِيفِ الكُتُبِ وَكَرِيمِهِمْ، كَمَا يُطَوَى مَوْتُ مُلْتَمِنَا
فِي زَغَارِيدِ تَعْلُو مِنْ خُفُوتِ لَفْظِ أَلِيمِهِمْ.. وَرُبَّ مَفْقُودٍ
فِي نَظَرِ المُرْجَفَيْنِ، رَاجِحٍ بِيَالَيْتِ قَوْمِي كَانُوا عَالِمِينَ..
!

وأحمد هو فلسطين ببساطتها التي لا تحتاج لتعقيد
سياسيٍّ أو فلسفيٍّ.. ذلك أنَّ النَّائِرَ قَبْلَ الدِّفْتَرِ والقلم ،
وألْعاب الصَّغار ، وأحلام القنَادِيلِ ، وأكوخ الفِراشاتِ
، إنه يُصَحِّحُ مَنَهِجَ الطُّفُولَةِ لِتُصْبِحَ فلسطينُ أغْنِيَتَهُ ،
وطنهُ ، حَبِيبَتَهُ الصَّغِيرَةَ ، قَصِيدَتَهُ ، بُنْدَقِيَتَهُ التي
قَضَى نَحْبَهَا !!

فلسطين أكثر من ذلك كُلِّهِ ، أكثر من أن يُنْفَسَ ثَأْرُهَا
فِي أُغْنِيَةٍ أَوْ ثَوْبٍ أَوْ رِثَاءٍ ، وَلَعَلَّهَا أَحْجُجَ لِكثِيرٍ مِنْ
الهِجَاءِ لِرِذَائِلِ الدَّهْرِ مِنْهَا لِرِثَاءٍ يَغْشُو بِالْكَمْدِ الثَّأْرَ !
وَلَعَلَّكَ الْآنَ تَقُولُ نَعَمْ فلسطينُ هِيَ أَلَّا يَحْدُثُ هَذَا كُلُّهُ..
وَأَقُولُ لَكَ لَا يَا صَاحِبِي فلسطينُ هِيَ أَنْ يَحْدُثَ هَذَا
كُلُّهُ.. وَلَوْ لَمْ يَحْدُثْ.. وَلَوْ انْصَاعَتْ وَكَانَتْ جُمْلَةً بَيْنَ
عَارِضَتَيْنِ.. لَمَا كَانَتْ فلسطينُ التي نَعْرِفُهَا وَتَعْرِفُنَا..
وَتُحِبُّنَا..

مدينة في غياهب الضياع

عدت مرارا وتكرارا من روتين الموت اليومي ,
أعانق الجدار العنصري في زمام مدينتي الحزينة ذات
أجنحة كهربائية شائكة , جئت أبحث عن وطن أمن لي
, بين الأشلاء المبعثرة من تحت ركام البيوت , ومن
تصاعد رائحة اللحوم البشرية , والقبور المرصوفة
على أرصفة طريق المشاة .

بالأمس لم أنم سوى بضع دقائق عابرة كلمح البصر ,
فزعت من تلك الزنانة التي تنهش السماء والأرض ,
تُفجر بصوتها على أناس لا حول لهم ولا قوة
, استطلاعات حربية متكررة , مشاهد من القيامة ,
الفرع الأكبر , تلك الحرب المجنونة .

هنا في فلسطينيتي الصغيرة , استباحات الدماء على
أنظار تلك الحكام , ولقاءات الغرب في بلادي المحتلة

, والمصافحات للمستعمر الغربي الذي لم يلبث هنا
سوى بضع سنوات عجاف تتملق على أجسادنا .

اعتدت على عناق أمي في عودتي من المدرسة
الثانوية , وتوبيخها لي على بعثرت الخزانة , وأوراق
في كل زوايا الغرفة , وعلى تلك الطعام الذي تركته
على الطاولة في الإفطار وذهبت إلى عالمي الصغير .
ولكن لم أجد ,

البيت ...

ولا عائلتي ...

ولا خزانتي ...

وقفت على ركام ذاك البيت المحطم , الدمع يتكور
على وجنتيه .. أرثي عائلتي , وتلك البيت , وأمتي
الإسلامية التي تشاهدني على بعد أمتار .

المقاومة المكتومة

طردونني من البيادر والحاكورة ...

طردوني من حقل البرتقال ومن كل المرافىء ..

طبعوا على قلبي ب لاجىء ..

فرحتُ يوم اجتزت سياجهم الذي أحاطو به أرضي
التي سرقوها.. عشر شُجيرات زيتون غرستها بيدي
الشريفتين.. ودخلت أرضي وأنا أتوجس.. ورأيت
شجر الزيتون يحيط به الكمد.. إذ ما تغيرت اليد التي
تتعده بالماء.. واستغاثوا بي، أجنّت لتُنقِذنا.. وشعرت
بأرضي تخفق تحت رجلي.. نعم لقد عرفتني كما
عرفتها.. وكمشت بيدي كمشة تراب منها ووضعتني في
جيبِي ووليت مُدبراً بعيون تغشاها الدموع.. كنت عائداً
فرخاً بكمشة التراب تلك حتى شعرت بها.. رصاصة
الجبنة اخترقت رجلي..

وَضَعُوا السَّلاسل في يديَّ ..

ثم جاؤوا بي بزنزانة متر بمتر طُولها ..

اعتقلوا...

الهوى ...

الهوية ...

البيت ...

الأرض ..

العَلَم ...

وحقل الآمان ..

عندما صرّخت أريد وطن !!

قالوا لي :

بأنّني مُجرّم ..

هموا بِرِكلاتِ اِقدامهم على جَسدي ، ومنذ ذلك الوقت
سَقَطَ نُصف من ذاكرتي، واستعدت جزء منها ،
وطفقت أقصف من ورق الجنة ..

حتى لا تَدْبِلَ فِلِسطين من خزانة ذاكرتي ..

وماذا الآن .. أنا الآن أسيرُ في سجون الاحـتلال
والقَذارة الإسـرائيلية ، أنا هنا أقبع في ركن من
غرفة ضيقة قذرة .. هي عيناها ، تأبى أن تسمي نفسها
غرفة.

كنت مقاوما، مقاوما حرا ، قاومتُ بالعلم والبندقية
والحجر ، وهذه تهمة _ إن طاب لكم أن تسموها تهمة
_ تهمة لا أنفيها بل أتثبت بها تشبُّت الغريق بالقشة.

لا تخطئوا ، إياكم والوقوع في ظنٍّ أنَّ الأسر شيء
عادي ، فقط لكثرة حدوثه ، إن لحظات التحقيق التي
تكون قبل الأسر حاسمة ، وفارقة ، لقد فاوضوني
وقدموا لي على طبق من ذهب حياة الترف وحرس

الشرف ، مقابل ماذا؟ مقابل أن أفلت يدي ، أن أبيع..
ورفضت ، رفضت رفضا قاطعا بكل جوارحي وكان
يتردد في أذني وقتئذٍ صوت جدتي " يا ابني ما يبيقتل إلا
الأجل ، الروح وهبنا إياها الله ومأرح يأخذها إلا هو ،
خلي هي الفكرة بقلبك ومأرح يرعبك شو ما عملو
فيك " جدتي التي ماتت وحيدة حزينة ، على حصيرة
أرشاها الزمن كما أرشى ظلم الاحـــــــــتلال روحها.
كما قلت ، لقد رفضت ، رفضت أن أباع ورأيت أن
السجن والتعذيب أرحم من بيع نفسي ، وما أحقر أن
يكون للمرء ثمن !

أما الآن فأنا هنا لا بندقية لدي ولا حجر ، لم يتبقى لي
سوى عقيدة تُدْفئ قلبي ولا توجد قوة فوق الأرض ولا
تحتها تستطيع زحزحتها منه. ولولاها ، يشهد الله ،
لقتلني البؤس والظلم والجوع.

ممنوع من كل شيء ، حتى الكلام ، يذلونني كل يوم ،
وكل ساعة أحيانا ، يرمون لي الفتات وآكله ، أحيانا
أضرب عن الطعام لشهور ، لكن الجوع قاسي ،
والعزلة أفسى ، ما أغباهم! يعذبونني وأنا مضرب عن
الطعام لشهور وكأنني سأشعر ، لكنني أشعر ، أشعر
حدود تمنني الموت، وما أحقر الغصة التي أشعر بها
حين أبتلع الفتات الذي يرمونه لي من أجل أن أبقى
فقط ، لا لكي أشبع فهو لا يشبع إطلاقا ، وأحيانا.. لا
يرمونه أبدا.

كما قلتُ سابقا ، إياكم وظنّ الأسر شيئا عاديا ،
وخصوصا عند قوم تعشش القذارة والشر في قلوبهم
تعشيش اللقلق على المآذن. تالله إني لا لأثر أن
أعيش هاربا منهم على أن أقبع هنا ممنوع من حق
"زيت الحجارة " حتى.. وهم يروننا نعمة أحيانا ، لأننا
عبرة بالنسبة لهم ، يعذبون الواحد منا تعذيبا يئنُّ له
الحجر من أجل العبرة لباقي الأسرى ، يشنقون الواحد

منا ويمزقوا جسده عبرة ، وأقسى ما في الأمر ، أننا جميعا.. مررنا من تجربة العبدة.

نحن أيضا فئران تجارب لهم ، يقومون بتجريب اللقاعات فينا ، وعدة أشياء أخرى لا يعرفها العالم ، لا نعرفها إلا نحن الأسرى ، وحتى عندما نخرج تأبى أنفسنا أن تحكيها وتفتح جراحا قديمة. أشياء أخرى لا يمكن أن تشعر بها إلا إذا كنت أسيراً.

لقد حاولوا طمسي ، وعلى نهج غسان ، لقد حاولوا أن يذوبوني كقطعة سكر في فنجان شاي ساخن وبذلوا ... يشهد الله جهدا عجبيا من أجل ذلك .. ولكنني ما أزال موجودا رغم كل شيء.

ما أزال موجودا ، وما زال لدي الحق في الانتفاض ، نعم! الانتفاض وتخويفهم والفتك بقلوبهم حتى وأنا قابع هنا ، ما زال في قلبي عقيدة قوية تبقيني حيا ، وستبقى ..

مازلت قادرا مثلا على حفر نفق في أخطر وأكثر
السجون حراسة وخطرا وتشديدا .. فعليا أخطرهم
وأكثرهم مراقبة وتشديدا ... والهروب منه ومن
جحيمة بملقعة. ملقعة ليس إلا ، وعقيدة طاهرة ،
وأرض عرفتنا فعانقتنا ولانت لنا.

لكن الحياة أصبحت أضيق الآن ، والوضع أصبح
أقسى ، لقد عذبونا وأذلونا ، عذبوا الطفل والشيخ
والمرأة والرجل منا ، عذبونا بلا شفقة ولا رحمة ولا
تأنيب ضمير حتى تساوت في عيوننا الحياة مع الموت
، فصرنا ببساطة قادرين على حرق غرفة بالسجن
الذي عشنا في جحيمة ، حرق غرفة تحوي ذكريات
صنعناها فيها ، ألبوم الصور الذي يحتضن صور
أطفالنا تأكله النار أكلا ، كتبتي التي أخبئها لكي لا
يقتل اليأس روحي تأكلها النار الآن ، تلتهم النار
الكتب، تفحم أطرافها، تجفف أوراقها، تلتف الورقة

حول نفسها كأنما تدرأ النار عنها ولا جدوى، لقد
تساوت لدي الحياة والموت لهذه الدرجة.

جدار رمادي^{٢٨}

لا أرصفة في شوارع المشاة ولا ورود ترخي بجدايلها
على أرصفة تلك الشوارع التي تهدمت بعجلات تلك
الدبابات الحاقدة ، قطعت تلك الأرصفة من لحمها
النبيء قبورا حتى تعانق أجساد المارة الذين هاربوا من
الموت إلى موت آخر ...

من موت النزوح .. الجوع .. الخوف ، الظلم الذي
طغى بمنكبيه على الحال منذ أن خلق الله هذا الكون ..
بالأمس ، جربت أرتحال النفس من الجسد ، وكيف
تنتزع الروح ، ألتصق جسدي الصغير تحت ركام
البييت الذي كان آمنا ، سكرات الموت في أرجاء
المكان ، الصراخ دوى من أفواه النساء ، الإسعافات ،
فارس المدينة المنفذ الفذ .

أنترع وجهي الجميل ، بعد أنتزع وجهي الجميل ،
تمزقت أحد يداي ، ودت أن أكون طياراً كجعفر بن

المُطلب ، ألحق به في سماء المدينة الحزينة . أختفت
من تلك الغبار التي دُفنت به تحت الأرض ، ومن ثقل
الصاروخ التي بالكاد نجوت منه .

أحتفظت بيدي

حتى أرسم جدارية رمادية على باب خيمتي وأعيد
عائلتي لي بقلم رصاص وأوراق بيضاء ..

أرسم أمي وأبي وأختي وأخي !!

وأشلاءهم الذين بقوا تحت البيت !!

وكراستي ..

دميتي الصفراء التي أحبها .

حتى لا أخاف من الخيمة وحيدة .

ولا أشعر بأن أجنحتي لم تطير بعد ؟؟!

فزعت على صوت امرأة شابة كانت في أقصى
المدينة مسروعة ، وجدت أشلاء طفلتها وزوجها بعد
شهر من الضياع ، من دميتهما الصغيرة ، ومن عناقه
لطفاته .

حيث البنادق والزيتون

يا لَوحدنا !

على النقيض هُنالك فلسطين الحبيبة ، تَجْرُ غبار
الحروب بلا أَسْتِسلام ، تَأْن بلا صَوْت حتى لا يوقظ
جماجم الأطفال المحترقة ، ولا رائحة اللحم البشْرية
..

هذه المَرَّة الأولى طيلة فترة طفولتي الممزوجة برائحة
الرصاص والبنادق والحروب أرى أبي ، هُنالك في
مَكان قَصي من الغُرفة ، يَسْمَح دموعه بكمه حتى
يخفيها آمَنا ، خَسِر محله التِجاري من القصف
العنيف ، ولم يَكُن هُنالك مَلاً لِنَتَشْري ملابس العِيد ،
ولا طَعامٍ يَسِد البطون الجوعى منذ أَشْهر لَيسَت بقليلة
!!

في الصَبَاح المُعتاد ، أيقظنا على صَوْت القصف
العنيف في أرجاء المَكان بغزارة شديدة ، ودَدت لو أن

هنالك طائفةٌ تَخطفني لِمكان لا حَرب فيه ، حيث
السلام من الفَرع الأكبر ، لكن دُون جدوى سوى أن
نَنصت لتلك القذائف والصواريخ واللهب .

قذفونا بالفوسفور الأبيض قال أبي إنه محرم دوليا..

أليس كل مايفعلونه بنا محرم؟

أستشهد أبني عمي بَاسل حرقا وأختناقاً بالفسفور ، بين
بيتنا وبيتهم حاكورة زيتون صغيرة نلهوى بها ،
ونصنع من طائرات الورقية حلما ، خارج فلسطين ،
وغزة الصغيرة ، خارج تلك الحدود والبنادق !!

كيف سنصبح من علماء تلك الأمة الإسلامية !!

ونحلم كيف سنحفظ القرآن عن ظهر قلب ، وندرس
المنهاج المدارس بتميز شديد ، حتى نُهاجر من خلف
الجدار ، ومن ظُلمات الإعراب ، ومن بطش القوات
هنا ، ونمضي إلى دول غربية يشع فيها الأمان
والسلام .

وخرجت أجري بجنون والقصف يهطل وابله، لم آبه
به كنت أجري وأبكي وأبكي، خزيا من نفسي، كيف
تتكرت لغزة لحظة ما؟ ورأيت الشيخ يحيى وأحفاده
الذين فقدوا أمهم وأبيهم.. هناك يجلس على أنقاض
بيتهم.. يحك لهم شيئا ما، ويستمعون له بشغف.. الشيخ
يحيى الذي يقارب التسعين الذي يعرفه كل من في
غزة.. لطالما حكى لنا عن أشجار الزيتون التي كان
يملكها في حيفا.. "عشرة شجرات زيتون غرستها
بيدي هاتين " كان يقولها ثم يبكي.. وكان للشيب معنى
آخر كما لو أنه هناك ليشرحه فقط.. رأني الشيخ
يحيى لوح لي بيده. يد واحدة.. فقد فقد الأخرى أول
البارحة.. هل شعرت شجيرات في حيفا بيده التي
طُمرت تحت الأنقاض؟ كان يلوح لي مبتسما لأنضم
لهم.. وحينئذ سقطت الفكرة في رأسي.. وزال
الخزي..

لا يا فلسطين الجريحة والمنهكة لن أرتحل منك !!

سَأَصْنَعُ مِنْ نَفْسِي فِي سُطُورِ الْمَقَاوِمَةِ وَالصُّمُودِ ،
سَأَشْعُرُ بِحَيْفَا وَبِرْتِقَالِ يَافَا ، يَوْمَ مَا أَنَا وَمَا تَبْقَى مِنَّا
سَنَحْمِلُ وَرْدَا مِنَ الْقُدْسِ ، وَلَوْزاً أَخْضِراً مِنْ صَفَدِ ،
وَرَمْلَ طَبْرِيَا ، وَسَنْبِنِي وَطَنَ جَمِيلاً .

وَبَيْتَنَا جَمِيلاً ...

وَتَنْتَهِي حِكَايَةُ الدَّمِ ..

وَتَغْلُقُ أَبْوَابَ السُّجُنِ ..

لَمْ يَكُنْ سِوَى فِلَسْطِينِ ..

وَمَدَائِنُهَا ..

وَحِكَايَاتُ الْمَآسِي تَتَوَرَّثُ مِنْ جِيلٍ إِلَى آخَرٍ .

قصص في قصة

على أوتار وأجنحة المدائن في فلسطين التي نحب ،
هناك عكا الحزينة تلوح بيديها المقيدين من خلف
الجدار العنصري ، تبكي من تلك علم الغرباء الذي
أغلف فمها كي تبقى صامته ، حتى باتت تهرم شيئاً
فشيئاً ، وذاك السور الذي هزم نابليون البريطاني من
عظمته .

ثمة هناك بصيص من الأمل يحلق بأجنحته في
صدري ، جامع الجزار ، والقرى القديمة ، وحاكورة
جدتي خلف البيت الريفي ، وطابون المعقود ، وعقال
جدي لا زل مربوطاً في شجرة الزيتون ، وأراضينا
الواسعة التي كانت لأبي في شبابه فهو الوحيد لجدي
وجدتي ..

ما أصعب أن يمر علينا طيف عكا من صور رمادية ،
وأخرى زيتية رُسمت بأيدي أناس لم يروا عكا قط ،

الوصول إلى هنالك ربما تستشهد أو ربما تصبح أسيراً
بحجة معهودة بأنك أتيت إلى مناطق إسرائيلية ممنوع
دُخول الفلسطينيين إليها !

تمنيت لو استشهدت مع أبي !!

ولكن أخاف أن أترك أُمي وحيدة !!

حَلّ المساء في المدينة التي أمكث فيها ، كل شيء في
هذا المساء مُخيف ، قُطعان من المستوطنين ، جنود
في كل الطُّرق ، أجنحة الخوف تطرق بأجنتها كل
زوايا ، أواسي قلبي المنهمك من الحروب بطيف عكا
، وبضع من الصور ، أعطاني إياهم أبي قبل أن
يستشهد في آخر معركة مع العدو .

جَلست على الأريكة بضع ساعات ، ارتقاء شهداء ،
احتراق بيوت ، أمهاتنا أرهقتهن الحروب ولكن أيمانهم
مرعب ، مرعب لحد يمكن لتلك الأم أن تواسي قلبها

باستشهاد أربعة من أبنائها دفعة واحدة ، وتستقبل
الخبر كما لو إنها تستقبل زفاف أعراسهم .

أنا لم أر دموع أُمي قط ، لكن شيئاً في قلبها ميت
ومُفكك ، ارتقى زوجها الذي هو أبي وهو شابا ،
ضعف بصرها وهي تُخيط بالأجور حتى تجلب لنا
الخبز ، واستشهد أباها قبل عاما ، والآن مضى على
استشهاد أخي علي الأكبر شهرا ، وجثته لا تزال في
مقبرة الأرقام .

إيمانها مرعبٌ ، جعلني أحفظ دروس العقيدة ، آيات
من القرآن ، وبضع دروسٍ من قصص الأنبياء ، يا
لها من أم عظيمة لا ترى الدمع في عينها ، كشجرة
زيتون في جبل المكبر مضى عليها آلاف السنين
ومئات الشدائد ولا تنحني !!

لم تقتلني تلك المدافع والرصاصُ ، بل أخاف أن
يكوي قلبي على فراق الوطن وأخي وأبي معاً .

لَقَدْ حَاولُوا أَنْتِزاعَ بَيتي وَهُويَتي وَخِيمَتي عَلى نَهجِ
الرِفَاعي

كَانَت لَنَا دارٌ وَكانَ لَنَا وَطَن !

وَبَذَلت في إنقاذِهِ أَغلى ثَمَن !

دُفِنَ أبِي وَأُخي بِلا كَفَن !

إِن كُنْتَ يَوماً سَكَبْتَ الأَدَمَعا

فَلا إِنني حَمَلتُ فُراقَها مَعا !

مَئِذْ أَن قَرَأَتها أَسَاداتِى اللُغَةَ العَرَبِيَّةَ في الثَّانِويَّةِ وَأَنا

أَتُكَوِّرُ في سَريرِى ما أَصَعَبَ أَن تَعايشَ بِلا وَطَنَ وَلا

هُويَّةَ وَلا قُبُورَ تَحْتَضِنُ ما تَبقى مِنَ العائِلَةِ !

أُخشي أَن ذَلكَ الفَجَرُ يَقذِفُ بي إِلى أَسوارِ عِكا ،

مَسجِدَنا الأَقصى وَنَمضي حِثْ نَقولُها قَدَ جَعَلها رَبي

حَقّا .

كسرة دم

ثمة سكرات من الموت تطوف حول نحرِ المدينة ،
الفرع كمد قلبي، والكمد أذابَ كبدي.. كُنت ذاهباً
لجلب أيّ شيءٍ لأمي وإخوتي الصغار ليسدوا به رمق
جوعهم..

بين رغيف الخبز والمدينة هنالك بنادق تنتظر جثث
المشاة ..

لقد مر علي في أرضي مليون قصةٍ مقاومٍ ومقاومةً ،
ما أورثه لي أبي الشهيد في تلك اللحظة منذ ولادتي ،
دبابات تدهس الأحياء حتى تختلط الأشلاء مع ذرات
التراب.

ذهبت إلى أقصى المدينة أسعى ، عاهدتُ أمي المُسنّة
وإخوتي الصغار الميتين جوعاً وبؤساً على إن لا أعود
بأيادٍ خالية .. ولم أعد..

بَحَثْتُ عَلَى لِسَاعَاتٍ عَنْ كَسْرَةِ خُبْزٍ حَتَّى تَعَبْتُ قَدَمَايَ
السَّائِرَةَ عَلَى خَشْخَشَةِ أَوْرَاقِ الْمَوْتِ الْيَابِسَةِ، الْعَالِقَةِ
فِي فَكِّ الْمَدِينَةِ وَالْحَرْبِ أَشْتَدَّتْ أَوْزَارُهَا.. وَحَمَى
وَطَيْسُهَا!

رَأَيْتُ الطَّرِيقَ أَمَامِي طَوِيلًا وَالنَّاسَ مُتَكَدِّسَةً أَمَامِي،
بِوَجْهِهِ مَتَعَبَةً مَلِيئَةً بِالصُّمُودِ وَالْمَقَاوِمَةِ بِنَفْسِ الْمَلَامِحِ
الَّتِي نَحْتَهَا الدَّهْرُ مِنْذُ الثَّمَانِيَةِ وَالْأَرْبَعِينَ لِتِلْكَ اللَّحْظَةِ.

مَشَيْتُ مَعَ الْمَوْتِ وَالْفَزَعِ وَالرِّصَاصِ فَوْقَ أَرْضِ
الْمَدِينَةِ حَتَّى أَجْلِبَ شَيْئًا مَا ، السَّمَاءُ بَدَلَتْ زُخْرَفَهَا
بَاتَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ اللَّهِيْبِ مُفْزَعٍ فِي فَلَسْطِينَ الَّتِي
نُحِبُّ .

فَلَمَحَنِي ذَاكَ الضَّئِيلُ الذَّلِيلُ، الَّذِي جَاءَ مِنْ أَقْصَى
الْأَرْضِ.. ذَاكَ الْجَبَانُ الَّذِي لَا يَعْرِفُ أَرْضًا رَلَا
تَرَابًا وَلَا زَيْتُونًا وَلَا مَقَاوِمَةً.. لَمْ تُعْجِبْهُ مَشْيَةُ الْمُقَاوِمِ
صَاحِبِ الْأَرْضِ، فَشَعَرْتُ بِالرِّصَاصِ قَدْ اخْتَرَقَ

جسدي وباليخبة ملامحه الذليلة الجبانة حينما رأني لم
أتوقف وأكملت الطريق لكسرة الخبز زحفا أنزف
وأشهد ... دهستني دبابة مفضحة بالحديد الثقيل ,
كانوا يضحكون على أنقاضي .. وكانت أمي وإخوتي
ينتظرون عودتي !

لم أعد سوى بضع أشلاء نصفها على أرضي ونصف
الأخر تبقى في جنزير الدبابة , وأمي لا تزال جائعة
تنتظر على باب الخيمة الممزقة ...

يوسف بين تكالب الذنب والعصبة

في البدء لم يكن هنالك أحداً في الحي الريفي يعرف
يوسف الطفل الصغير ، "طفل الحجارة والثورة "
سوى من عائلته التي أخذَ الله منها الجريح والأسير
والشهيد، أُلحق بهم بصفوف الحق والحقيقة .

هذه المرة الأولى تَخذله عيناه لم ينم طوال الليل، دُجاء
كان في تَشرد بغيض ، حَوْل إِذاعات الأخبار التي
تدفق عن حقوق الشعب الفلسطيني الحزين!
حَق الأسير الذي أكلت الرطوبة من جسده الهالك!

حَق الطفل الصغير ، وحق النساء ..

مؤتمرات جامعات الدول العربية التي أعلنت وقوفها
الدائم للشعب الفلسطيني له أم عليه لا ندر.. من يأبهُ
باجتماعات تُريد مُحاربة استعمار غاصب بورود
مُعطّرة، ولافتات سلمية بخط جميل !

حُرُوبٌ قِصَاحٌ مَرَّتْ عَلَى رَأْسِهِ، كَانَ يَعْيشُ فِي
مَخِيمٍ قَبْلَ أَنْ يَنْتَقِلَ إِلَى هَذَا الْحَيِّ ، أَعْدَمَ الْإِحْتِلَالُ أَبُوهُ
أَمَامَهُ ، ثُمَّ جُرِحَ أَخَاهُ الْأَكْبَرُ وَاعْتُقِلَ الْآخَرُ فِي طَرِيقِهِ
إِلَى عَمَلِهِ بِالْمَدِينَةِ..

لِبَرَهْمَةٍ تَذْكُرُ بَيْتَهُ الصَّغِيرَ الَّذِي صَارَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ
الرِّيَّاحُ.. فُتَاتًا مِنَ الرُّكَامِ لَا يَصْلُحُ سِوَى لَذَكْرِيَّاتٍ
تَكْسُدَتْ فِي مَخْزُونِ الذَّاكِرَةِ الْهَشَةِ الْعَلِيلَةِ !

يَا لَهَا مِنْ قَنَوَاتٍ تَخْتَلِقُ الْأَكَاذِيبَ، لَمْ أَرِ هَذَا بِحَقٍّ،
عِنْدَمَا كُنْتُ صَغِيرَةً وَأَنَا أَرِى فَلَاسْطِينَ لَوَحْدَهَا
حَزِينَةً، جَرِيحَةً، كَمَدَّةَ الشَّجْوِ.. الشَّاهِدَةُ وَالشَّهِيدَةُ ؟
تُرَى عَنْ أَيِّ حَقٍّ تَخْتَلِقُهُ هَذِهِ الْقَنَوَاتُ وَتِلْكَ الْكُتُبُ
الْفَلَسْفِيَّةُ؟

حَقِّي فِي أَنْ أَذْهَبَ إِلَى الْمَدْرَسَةِ بِلَا مُرُورٍ عَلَى مَعَاظَةِ
الْبَلَدَةِ الْقَدِيمَةِ ؟

أَمْ حَقِّي بِأَنْ نَجْتَمِعَ فِي بَيْتِ وَاحِدٍ بِلَا نُقْصَانٍ !

أَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبَدِّ إِلَى أَحَدٍ صَدَى
الصَّوْتِ الَّذِي أَكَلَ قَلْبَهُ الصَّغِيرُ،

لأنه يعرف فلسطين من السلاسل والقُبُور والحجارة
والثُورَة والتُّراب والزيتون، بالنسبة له فلسطين ليست
إلا جزءاً منه، يُكَنِّشُ في مذكراته كُلَّ حجر هوى بها
على الجنود في منتصف البلدة، جيرانه مُستوطنون ،
يَقْبَعُونَ في مدينة الخليل ، في آخر المدينة ، يأكلون
مما يأكل ويشربون مما يشرب ، لكنه ليس له أحقية
بإعتراف بفلسطينته ، وليس له أحقية برسم علم على
جدران بيتهم الذي هو لهم !

وليس له أحقية بأن يقول فلسطين حرة ..

سَيَعْتَقِلُ بِهَتْمَةِ الإرهاب ..

الفَّانُونِ الدُّوْلِيِّ ليس سوى كُمُشَّةُ أوراق صفراء سادة،
أضاعت فلسطين قَبْلَ قَرْنٍ ، ليست سوى مقصوصات
وَهْمِيَّة ، فقط لِتَصْنَعِ مِنْ أجسَدنا الصَّغِيرَةِ حكاية يَلْهُو

بها الإعلام العبري والعربي على قنواتٍ نرى فيها
على كل نشرة موتنا تعلو وتهوي معاوُله !

رجال من شوك

كَانَ بَسِيطاً، طَيِّباً، يَسْتَحِي الْمُرُورَ عَلَى الْعُشْبِ قَائِلاً
إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ، وَمَا اسْتَجَدَّتْهُ
قِطَّةٌ بَعِیُونَ شَجَنَةً إِلَّا وَأَطْعَمَهَا، وَوَلَا سَأَلَ إِلَّا
أَجَابَهُ.. هُوَ الَّذِي يَبِيتُ جَائِعاً لَيَالٍ طَوَالَ ثِقَالٍ.. مَذُّ
فَقَدْ أُمِّي، سَكَنَ الدُّجَى قَلْبَهُ وَنَامَ اللَّيْلُ الَّذِي لَا يَنَامُهُ
تَحْتَ عِیُونِهِ الْمُسَهَّدَةِ.. !

لَا أَنْسَى ذَاكَ الْيَوْمَ، بَعْدَ عَصْرِِ اللَّهِ، حَيْثُ الْقَيْظُ مُحْتَدِمٌ،
وَالْحِصَارُ يَطَالُ الْقَرْيَةَ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ وَصُوبٍ، أُسِيرُ
بِخَطَوَاتِي الْمُرْتَجِفَةِ عَسَى أَنْ أَجِدَ صَيْدِلِيَّةً مَفْتُوحَةً
لَأَشْتَرِيَ لِأَبِي دَوَائِهِ، أَبِي الَّذِي أَكَلَ الدَّهْرُ كِسْدَتَهُ،
وَنَحَتَ تَقَاسِيمَ وَجْهِهِ الْمُتَعَبِ مَرُّ الزَّمَنِ وَكَمَدَهُ، يَجْلِسُ
آنَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافِ النَّهَارِ عَلَى كُرْسِيِّهِ الْمُتَحَرِّكِ
الْمُرْقَعِ، يَأْكُلُ أَظْفَارَهُ بِرَجْفَةٍ وَانْطِفَاءٍ، وَلَا يَتَكَلَّمُ إِلَّا
إِيمَاءً.. وَأَمَامَهُ صُورَةُ لَجْنَانِ زَيْتُونٍ شَامِخٍ يَتَوَسَّطُهَا

رجلٌ يعصِبُ رأسه بكوفية، يبتسم شادناً، بيده غصن
زيتون يحمله فرحاً كأن بيده جُلَّ البلد الأمين !

ياحسرة الدهر، من قال أن ذاك الرجل يجلس الآن
على ذاك الكرسي المَهترئ برجلين مبتورتين من
أعلى الفخذ...!

"عشرة شُجيرات.. غرستهن بيدي هاتين!" هكذا كان
يقول لنا في زمنٍ مَضَى ثم يردف "والله لندحرهم من
هي الأرض والله لاكتلهم.. إذا راحوا الإجرين لسه
الإدين، وإذا راحوا الإيدين لسه العروق بتنبض!"

هكذا كان يقول أبي، ثم مالَبَثَ أن باع بندقيته لشراء
أدويته، وبدأ كرسيه بالاهتراء، وكان أبي يهترئ
معه.. حتى غور جرحه، وشبمت كبده، وكمد قلبه،
وفقد القدرة على الكلام..

كيف سأقول لصاحب الصيدلية الذي سيطردني على
عدم امتلاكِي لثمن الدواء الكافي أن هذا الدواء

لمقاوم قديمٍ أثنى في الغاصبين جراحاً لم يجدوا لها
ضِماًدا؟ كيف سأُشرحُ له أنَّها لصاحب عشرة زيتونات
في حيفا، كان يقنص المحتل من بين ظلالها؟

كيف أحكي له قساوة قصّة أبي مذْهُجٍ من حيفا حتّى
وصوله هنا، حيثُ التقى أمّي وتزوجا، وكان يمني
نفسه الجريحة بزيارة أرضه التي سلّبوها إياها
وقدّموها كفنجان شاي لمُسْطوْطِنٍ أتى من أقصى
الأرض، غريبٌ عن فلسطين وغريبةٌ عنه !

كيف سأحكي له عن أمي التي ماتت كمدّاً على
استشهاد أخي ذو الخمس سنوات، فعزم أبي على
العودة لزيارة أرضه بأي ثمن..

كان صباحٌ ذو جو مُستنفر لا ندرٍ لِمَ، استيقظ أبي
فجراً، حضرَ لنا فُطُوراً ووصاني على أخي الأصغر
الذي تَبَقَّى وخرج.. لم ندرِ إلى أين ذهب.. حتّى
جاءت جارتنا أخذتنا معها وحاوَزتنا في بيتها.. وفي

ملاحمها ذُعرٌ واضحٌ.. تُوجسُ في نفسها خيفةً لم تكن
لتُخفى علي.. أطعمتنا واحتضننا، وسمعتها تقول
وهي تحتضن أخِي الأصغر وتُهدد عليه بحنو
الأمّهات لينام "يا الكمدي عليكم يا أبناء الطيّبة" وقد
كانت تقصدُ أمِّي الشّهيدة.. في فلسطين الأمّهاتُ
تُخلف فلا يبيتمُ فينا ابن شهيد.. فكلنا أبناء شهداء
والباقي منا ينتظر ولن نبذلَ تبديلاً !

لقد دخل أبي أرضه ذاك اليوم، اجتاز السياج
بجروح.. مشى فوق ترابها شعر بالأرض تخفق
تحت رجليه، ورأى زيتونه حزيناً إذ ما تغيرت اليدُ
الذي تتعده بالماء، حمل كمشة تراب وبضع الثمار
وخبأهم في جيوبه.. وولّى مُدبراً بعيون تفيض من
الدّمع حزناً ليجتاز ذاك السّياج، لكنّ المُستوطن كان
قد رآه، وقنصه في رأسه، لم يكتفوا بذلك.. حملوه -
هو وأصحابه- بدمه الذي يجري شللاً قِدْوه ومرو

على رجليه بالسيارة ثلاث مرّات، حسب قول أبي،
قال أنه لم يُغمض عينيه وكان يشعر بألم فضيع لكن
أبى إلّا أن يصمد..

وهنا بدأت تنتهي حكاية المقاوم بين كهوف الجبال..
فقد رجليه، وعاد بتجلّط حاد في رأسه يسبب له نوبات
ألم فضيع كل يوم.. !

دخلت الصيدلية وأنا أمنيّ نفسي أن أجد بديلاً أرخص،
ويالفرحتي حينما وجدته.. وبقي لي شيكل اشتريت به
خبزة أنقاسها مع أبي الذي قطع الجوع أحشائه..
وعُدت أسابق الرياح فرحة كأنما ملكت الدنيا، أبي
الذي قاوم نوبات الألم لأسبوع بدون دواء سيرتاح
قليلاً الآن.. وصلت للبيت.. شعرتُ ببردٍ يغمره،
غريب ! القبط يخنق الهواء لم البيتُ بارد؟ مشيت في
اتجاه الغرفة التي لا نملك غيرها.. رأيته هناك في

أقصى الغرفة بكُرسِيه المهترئ. رأسه مُسَهَّدٌ على
كُتْفِه، ورافعاً أصبعه السَّبَّابَةَ.. وكان لأول مرة بعد
سنوات.. يبتسم

إني لأجد ريح يوسف

أمه الوحيدة في ذلك الحي في منتصف المخيم لم
تُصدق نبأ استشهاد ابنها الشاب المُقاوم ذو لباس
التَّقوى، وبندقيته المتيقظة لتلك الاقتحامات الليلية
الاعتيادية، منذ الثامن والأربعين والوَطن يُقدّم أبناءه
قرباناً من خطيئة أولئك الأعراب والمُؤامرات التي
غزلت الأكفان واحداً تلو الآخر!

وتلك الدبابات التي تبتلع نصف الطريق، جبانة
كأصحابها.. ما إن ترى ماشٍ يمشي مشية صاحب
الحق والأرض، تُقرّر أنه يجب أن يسوّى بالأرض..
يحمل الحجر، ممشوق القامة، يعوي ب صدره ضدّ رياح
الظلم التي تهب بعصف.. يتصدى للجنود.. تعرفه
أرضه فتلين له وتفتح له السبيل، ترى أن الكمد كثيرٌ
عليه، تنتظره ليؤدّي أمانته، ثمّ تحتضنه كأم تأكل ابنها
الحمّى.. أما أمّه فتنتظره كل ليلة على نافذة بيتها ،

خَشِيَّةٌ أَنْ تَسْمَعَ طَلْقَةَ جَائِرَةٍ.. فَتَكُونُ طَلْقَةُ ظَلَمٍ وَجِبْنٍ
قَدْ اخْتَرَقَتْ صَدْرَهُ..

إِنِّي لِأَجْدُ رِيحَ يُوسُفَ مِنْ قَمِيصِهِ الْمَتَّقُوبِ ، الذَّنْبُ لَمْ
يَأْكُلْهُ وَلَمْ يُمِزِقْ جَسَدَهُ ، جُنَّتْهُ لَمْ تَأْتِ إِلَيْهَا ، وَلَمْ يُكْحَلْ
بَصَرُهَا بِإِثْمِ رُؤْيَيْهِ وَهُوَ عَائِدٌ عَلَى أَكْتَافِ الشُّبَّانِ ،
الْجُنُودِ اخْتَطَفُوا جُنَّتَهُ بَعْدَ اسْتِهْدَافِ سَيَارَةِ الْمُلْثَمِينَ ،
حُرَّاسِ الْجَبَلِ وَالْوَطَنِ..

لَيْسَتْ هَذِهِ الْمَرَّةُ الْأُولَى ، تُقَدِّمُ ابْنَائُهَا شُهَدَاءَ لَتَلِكِ
الْأَرْضِ الْحَزِينَةِ وَلِبُرْتَقَالِ يَافَا ، وَلَيَمُونِ حِيْفَا.. جُذُوراً
تَمْتَرِجُ كِسِدَتَهُمْ بِالْتُرَابِ فَتَنْبِتُ زَيْتُونَةً تَعْلُو مِنْ خُفُوتِ
دَمْعِهَا.. بَلْ هِيَ مَنْ غَزَلَتْ حُبَّ الْوَطَنِ وَالشَّهَادَةِ فِي
أَبْنَائِهَا .

أَبْنَهَا الْأَوَّلَ اسْتَشْهَدَ قَبْلَ شَهْرٍ ، وَتَرَكَ لَهَا فَتَاةً صَغِيرَةً
تَرْقُدُ بِجَوَارِهَا ، نُسُوهُ الْبَلَدَةُ خَشِينَ عَلَيْهَا بِأَنْ يُصِيبَ
عَقْلَهَا مَكْرُوهُ ، لَمْ تَذَرْفُ دَمْعٌ وَلَمْ تَتَفَوَّهْ بِكَلِمَةٍ أُخْرَى ،
تَوَاسَى قَلْبُهَا بِإِنِّي لِأَجِدَ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفْنَدُونَ
، الطُّمَأْنِينَةُ الَّتِي كَمَدَّتْ قَلْبَهَا وَمَا رَأَتْ مِنْ نَصْرِ اللَّهِ
وَقُرْبِهِ جَعَلَتْهَا أَكْثَرَ مِنْ أَنْ تَحْزَنَ عَلَى مَا أَصَابَ
دِيَارَهَا ..

لَمْ تَكْتَرِثْ ، مُتَشَبِّهَةٌ بِحُلْمِ يَعْقُوبَ بِلِقَاءِ يُوسُفَ
وَبِحُلْمِهِ الْحَقِّ ..

مَضَتْ أَشْهُرٌ وَلَا تَزَالُ تِلْكَ الْأُمُّ مُعْتَكِفَةً مِحْرَابِهَا ،
رَاكِعَةً سَاجِدَةً قَانِتَةً آثَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافِ النَّهَارِ ،
الْقُرْآنَ مَلَاذِمًا وَمَهْرِبًا الْوَحِيدَ وَتَذَكَّرَهُ خَوْفًا وَطَمَعًا
لِتِلْكَ الْكِبْدِ الْغَائِبَةِ ، فِي كُلِّ مَرَّةٍ تَسْتَسْلِمُ لِنَبَأِ رَحِيلَةَ
يَتَقَيِّظُ قَلْبُهَا بِ "إِنَّا رَادُوهُ إِلَيْكَ"

طَرَقَاتِ الْبَابِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، جَعَلَ الْقَوْمَ فِي الْحَيِّ
يُصَابُونَ بِالْجُنُونِ فَهَمُّ رَأَوْ دَمَهُ عَلَى تِلْكَ السَّيَّارَةِ
وَقَمَصَهُ الْمَنْقُوبُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ .

ابنها في مُسْتَشْفِيَّاتِ الْمُسْتَعْمَرِ -السَّالِخَةُ لَا الشَّافِيَّة- لم
يَمِتْ وَلَمْ يَسْتَشْهَدْ، وَلَمْ يَأْكُلِ الْفِرَاقُ قَلْبَهَا ثَانِيَةً، أَطْلَقَتْ
الزَّغَارِيدَ مِنْ حُنْجَرَتِهَا وَالدَّمْعُ نَالَ مِنْ عَيْنِهَا .. وَبَيْنَمَا
كَانَتْ تُقَلِّبُ فِيهِ وَتُقَبِّلُ كَفِيهِ بِدُمُوعٍ تَتَهَمَّرُ شَلَالًا صَدَعَتْ
الْمَسَاجِدُ بِ "فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ
وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ" .. وَقَدْ عَلِمْنَاهُ هُنَا فِي الْأَرْضِ
الَّتِي بُورِكَ فِيهَا لِلْعَالَمِينَ .. أَنَّ وَعْدَهُ جَلَّ عَلَاهُ حَقٌّ
تَحْقِيقٌ!

مدارس زمن الحروب

في اليوم الأول أُعِدَّ نفسي على النهوض باكراً ، إلى
المدرسة حيث التاريخ والجغرافيا واللغة العربية ومادة
الحساب التي لم يحبها أحدا ..

أمشي بخطواتٍ يملؤها إصرار بأن هنالك مستقبلاً
خالياً من تلك الحواجز الثقيلة، والمعابر المذلة التي
تنهش الوطن وتقطع أحشائه وتأكل كبده ك هند بنت
عتبة، هذا الصباح على غير عادته ، الحرب والموت
في كل مكان ، الرصاص ينتشر في زقاق المدينة،
حتى الوصول لتلك المدرسة يؤدي بحياتنا، أو ربّما
قد يمزق ذاك الجندي كُرَاسِي الجديد على الحَاجِز!

قَضَيْتُ قرابة ساعة وأنا سائرٌ بتلك المدينة حتى ذهب
الطلابُ إلى مدارسهم، كانتِ المرة الأولى التي
أتأخر فيها عن حصص التاريخ السَّارِدة لنا كيف
تَغزوا بريطانيا أعداؤها، ونظام الدِكتاتورية، وخُرافة

القانون الدولي ، وكيف هزم الفرنج الروم .. كلها من
تاريخ مزيف اعتاد أستاذ مادة التاريخ على التفوه به
حتى ينسينا بأن هنالك أشلاء نفسها تحولت لأشلاء ..
نالت منها حيوانات البراري ، يا له من أستاذ نسي
القضية التي يجب أن يغرَس ثمارها في هؤلاء
الطلاب ... كيف كل ما مر ذكر الاستعمار على فاهه
لا يمتنع ، لما لا نرى الاشمئزاز على وجهه؟ أليس
الاستعمار برُمته طينة واحدة .. وقد اعتدت على
تصحيح خطئه .. فكان كلما ذكر الاستعمار قلت في
سريري بحزم وشجاعة "يسقط الاستعمار!" كما
اعتادت فلسطينا الجريحة على تصحيح أخطاء ومسار
العالم ..

دخلت الصف بعد وقت مرَّ كدهر .. كل الأنظار
تستهدفني كسهام من القسي .. هذه أول مرة أتأخر فيها
عن حصة أستاذها لا يقبل التأخر .. رمقني بنظرات
غاضبة قبل أن يقول:

" كَيْفَ لَكَ أَنْ تَتَأَخَّرَ عَنْ دَرَسِ حُرُوبِ الْفَرَنْجَةِ ،
وَأَتَّفَاقِيَّاتِ الْأَعْرَابِ لِاسْتِرْدَادِ النَّيْلِ وَالْفُرَاتِ ،
وإِعمارِ فِلَسْطِينَ ..

ثُمَّ بَدَأَ يَسْأَلُنِي كِعَادَتَهُ مَعَ الْمُتَأَخِّرِينَ مُحَاوَلًا قَنْصِي
بِجَوَابِ لَمْ أَصْبِهِ .. فَاسْتَهْلَّ وَابِلَ أَسْئَلَتِهِ لِي عَنْ
تَحَالَفِ الدُّوَلِ الْعَرَبِيَّةِ مَعَ فِلَسْطِينَ ، وَإِجَابِيَّاتِهَا الَّتِي
جَعَلَتْ مَنَا الشَّهِيدَ وَالْأَسِيرَ وَالْجَرِيحَ ، حَتَّى مُنْظَمَةِ
حُقُوقِ الطِّفْلِ لَمْ تَجِدِي بِنَفْعٍ .. كُلُّ مَا دُونِ الْمُقَاوِمَةِ
عَبَثٌ فِي عِبَثٍ !

أَمَعَنْتُ النَّظَرَ لِلْحِظَاتِ فِي عَيُونِ الْأُسْتَاذِ .. الْأُسْتَاذُ
الَّذِي يُشَبِّهُنِي .. يُشَبِّهُ أَبِي .. وَيُشَبِّهُنَا جَمِيعًا .. يَحْمِلُ
جِلْدًا فِلَسْطِينِيًّا صَلْبًا .. وَأَعَيْنَ يَسْتَوِطِنُهَا الْحُزْنَ ..
وَأَهْذَابٌ كَثِيفَةٌ بَتَّارَةٌ قَدْ تَحْجُبُ الرُّؤْيَا قَلِيلًا .. شَبَّهْتُهَا
لِلْحِظَةِ بِسَيُوفِ الْمُتَخَاذِلِينَ وَالْمُرْجَفِينَ الَّتِي حَجَبَتْ وَاقِعَ
الْحَالِ عَنِ الْكَثِيرِ .. أَشْفَقْتُ عَلَيْهِ .. كَيْفَ قَنَعُوهُ
بِالْمَشْرُوعِ السَّلْمِيِّ وَالْوَطَنِيَّةِ وَالشَّعَارَاتِ الْخَاوِيَةِ ،

كيف آمن بالقانون الدولي الذي لم يرف له جفن ونحن
نُقتل ونُذاب على أعين الأقاصي والأداني.. فشعرت
بالواجب.. بواجب الذكرى، بأمانتها كأمانة فلسطين
{وَذَكِّرْ إِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ}.. ولأول مرة
رأيت تقاسيم وجهه وهو يُمعن النظر في مُحياي
كتفرعات غُصُون الزيتون.. نعم هذا الأستاذ أعرفه..
منذ سبع سنوات أنقذني من يد ذاك الجندي الذي كان
يحاولي خنقي وأنا في عمر السابعة، وضربه الجندي
ضرباً مبرحاً بسبب ما فعل.. كيف تنكّر لي.. كيف
تنكّر لفلسطين بسبب حصّة مَادَّة - التاريخ- نحن من
نكتبها !

فاستجمعتُ الكلمات. ثم بُحت بكمد وأسى: أما عن تلك
التحالفات فقط أنظر من تلك النافذة يا بطلي المُنقذ فهذا
جدار ذو أسلاك كهربائية، وتلك قبة الصخرة تطل من
بين أنيابه، أما تلك الكراسيات فهي رهن الموت
والتمزق في أي وقتٍ من نبح الغربان عند الحاجز.

وَتِلْكَ الْخَرَائِطُ ، وَتِلْكَ الْحُرُوبُ قَضَتْ ، لَمَّاذَا لَمْ يَكُنْ
هُنَاكَ مِنْهَجٌ لِفَلَسْطِينٍ وَحَدَّهَا ، فَنَحْنُ أَهْلُ الْحُرُوبِ
وَأَهْلُ الْعِلْمِ وَالْقَصِيدَةِ وَالرَّوَايَةِ وَالشَّعْرِ وَالنَّثْرِ ، الْوَطَنُ
هُوَ أَنْ نَعِيشَ بِلَا خَوْفٍ وَلَا ذُعْرٍ أَنْ يُولَدَ الْطِفْلُ مِنْ
رَحْمِ السَّلَامِ وَلَيْسَ عَلَى ضَجِيحِ الْحَرْبِ ، أَنْ تَتَقَضِيَ
أَيَّامُنَا بِلَا اقْتِحَامَاتٍ وَبِلَا مَوْتٍ .

أَمَّا ذَلِكَ التَّارِيخُ يَا أَسْتَازِي فَمَا هُوَ إِلَّا بَعَثَرَاتُ حَبِرٍ ...
وَأَمَّا تَحْقِيقُهُ فَنَحْنُ مَنْ نَكْتُبُهُ بِالْأَدْمَاءِ

صَفَقَ الطُّلَابُ بِحَرَارَةٍ ، وَكُنْتُ أَرَى الدَّمَاعَ يَنْهَمِرُ مِنْ
عَيْنَيْهِ .. وَكَانَتْ أَهْذَابُهُ أَكْثَرَ عُلُوًّا بِشَكْلِ يَتَضَحُّ بِهِ
الْإِبْصَارُ ..

قَبْلَ رَأْسِهِ الْأَسْتَازِ وَمِنْذَ ذَلِكَ الْيَوْمِ بَدَأَ يَحْكِي لَنَا عَنْ
تَارِيخٍ مِنْ نَوْعٍ آخَرَ .. عَنْ فِلَسْطِينٍ مِنَ الْبَحْرِ إِلَى النَّهْرِ
حَتَّى تَتَطَوَّى صَفْحَةُ التَّنَارِ إِلَى الْأَبَدِ وَلِأَوَّلِ مَرَّةٍ لَمْ يَقُلْ

لنا "انتهت الحصة.. انصرفوا " عند نهايتها بل قال
"يَسْقُطِ الإسْتعمار وقاتل الله اليهود .. وَ لَا تَنْصَرِفُوا..
ابقوا كأشجار الزيتون المتجذرة.. فمال فلسطين
غيرنا، ومالنا غيرها !"

غريبا في الوطن

هل أنت قاتلة ؟

صَفَعَنِي إِيَّاهَا ذَاكَ الْجُنْدِي عِنْدَمَا مَرَرْتُ مِنْ تِلْكَ
الْحَاجِزِ الْعَنْصَرِيِّ ذَاهِبًا إِلَى جَامِعَتِي ، لَمْ يَكُنْ بَوْسَعِي
إِلَّا أَنْ أَشْخَصَ بَصْرِي عَلَى ذَلِكَ الْجُنْدِي دُونَ تَقْوِهِ
بِأَيِّ كَلِمَةٍ كَي لَا يَعْتَقِلُونِي بِتَمَهَةِ التَّحْرِيطِ وَالطَّيْشِ !!

سَاعَاتُ أَفْ أَمَامَ شَمْسٍ تَمُوزُ الْحَارَةَ لَمْ أَتَمَكَّنْ مِنْ
الْعُبُورِ بِحُجَّةٍ إِنِّي نَسِيتُ تِلْكَ الْهُوِيَّةَ فِي الْبَيْتِ أَتَاءَ
رَكْضِي مُسْرَعَةً إِلَى الْجَامِعَةِ كَي لَا أَتَأَخَّرَ عَنْ
دُرُوسِي فِي الْعَقِيدَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ الَّتِي أُحِبُّ .

هَلْ أَنْتِ مُجْرِمَةٌ ؟ هَلْ لَدَيْكَ سَكِينٌ ؟ لِمَاذَا إِذِنْ خَرَجْتَ
مِنْ بَيْتِكَ ، بِاللُّغَةِ الْعِبْرِيَّةِ الَّتِي بِالْكَادِ أَنْ أَفْهَمَ مِنْهَا شَيْئًا
، أَتَتَابَنِي خَوْفًا لَمْ أَتَعْلَمْ يَوْمًا الْعِبْرِيَّةَ ، لَا أَعْلَمُ سِوَى
تَرْتِيبِ الْآيَاتِ فِي الْقُرْآنِ وَأَفْرَقُ بَيْنَ الْمَذَاهِبِ وَتِلْكَ
الْأَدْيَانِ ، لَمْ أَطْلَعْ عَلَى لُغَةِ الْحُرُوبِ وَلَا عَلَى لُغَةِ

الأعداء ، الوقت يمر بسرعة ، لم أتمكن من المرور
حتى أصل إلى جامعتي ، وإلى عالمي الصغير ، وإلى
تلك المحاضرات ..

لست قاتلة ولم أرتكب جرماً بإنني نسيت تلك الهوية
في البيت ، الوقت يقضي بسرعة البرق ، الساعة
الثانية عشر بعد الظهر ، أغشي عليه من شدة
الحرارة والوقوف لساعات بتهمة لم تكن تهمة أيضاً .

لا أعلم ماذا حدث لي !!

أوقفوا الكوادر الطبية من الوصول إليه وأنا أتكور
أرضاً !

لم أفق سوى على صوت أمي في البيت تقول :

أستشهد ... أستشهد ..

كان ذلك الفارس ، مقاوماً شرساً ، لم ينتظر قدوم
أسعافٍ ، بل قاوم الحاجز والجنود ، وتلك البنادق ،

وَأُنْقَذَنِي بِجَسَدِهِ ، قَنَوَاتِ الْإِخْبَارِ ، تَتَحَدَّثُ عَنْ ذَاكَ
الشَّابِّ الَّذِي تَمَكَّنَ مِنْ عُبُورِ الْحَاجِزِ حَتَّى يَنْقُذَ فَتَاةَ
شَابَّةٍ أُغْشِيَ عَلَيْهَا مِنْ عَرَقَةِ الْجُنُودِ أَرْضًا ..

أَصَابَنِي نَوْبَةٌ شَدِيدَةٌ مِنَ الْبُكَاءِ ، ارْتَحَلَ بِشِبَابِهِ كَيْ يَنْقُذَ
فَتَاةً لَمْ يَعْلَمْ أَسْمَاهَا قَطْ ، أَلَيْسَ مِنَ الْعَدْلِ أَنْ أَبْكِي عَلَيْهِ
إِلَى الْأَبَدِ ، رَأَيْتُهُ ، كَانَ مُغْطَاهُ بِدِمَائِهِ ، وَشَرِيطَ
الْجُنُودِ الْأَصْفَرِ مُحَاطٍ بِجِثْمَانِهِ ، سَقُطَ شَهِيداً مِنْ أَجْلِ
أَنْ تَحْيَا تِلْكَ الْحُرَّةُ ذَاتَ النِّقَابِ وَالْقَفَازَاتِ .

مَكَثْتُ فِي الْبَيْتِ شُهُوراً حَتَّى أُعِيدَ مَا تَبَقِيَ مِنْ رُوحِي
الْهَالِكَةِ ، لَوْ لَمْ أَخْرَجْ لَمَّا سَقُطَ شَهِيداً مِنْ أَجْلِي ، وَلَمْ
تَفْقَدْ أُمَّهُ شَاباً مِثْلَهُ .

نصف ذاكرة

تَتَظَلُّ عَلَى ذَاكَرَتِي الْمُهْمَشَةُ مَشْهَدَ تِلْكَ الْحَرْبِ
الْمَجْنُونَةِ ، لَمْ يَكُنْ هُنَا فِي الْوَطَنِ النِّجَاةُ مِنْ ضَرْبَاتِ
الْجُنُودِ الثَّقِيلَةِ وَمِنْ تِلْكَ الْقَذَائِفِ الْمُحْرِمَةِ دَوْلِيَا ، وَلَمْ
يَكُنْ هُنَاكَ حَقٌّ بِإِنْ تَقُولُ إِنَّكَ تَمُوتُ تَحْتَ الرُّكَامِ وَبَيْنَ
الْحَوَاجِزِ ، وَفِي أَرْضِكَ وَأَنْتِ تَقْطِفُ الزَّيْتُونَ ، وَرَبِّمَا
يُرْكَلُونَ الْجُنُودُ الْبَيْتِ وَالنَّاسُ نِيَامُ يَطْلُقُونَ الرِّصَاصَ
عَلَى رَبِّ الْأُسْرَةِ أَوْ أَبْنِهِمُ الْكَبِيرِ فَيَخْتَلِطُ دَمُهُ
فَرَّاشَةً ..

رَكَضْتُ إِلَى أَقْصَى الْمَدِينَةِ ، الْمَوْتُ يَقْذِفُ مِنْ كُلِّ
جَانِبٍ ، الْوَالِدُ وَالْمَوْلُودُ أُسْتَهْدَفُوا مِنْ تِلْكَ الْقَنَاصَاتِ ،
النِّسَاءُ وَالْفَتَيَاتُ فِي صَرَاحٍ تُشَقُّ لَهُنَ السَّمَاءُ السَّبْعُ
بَأَجْنَحَتِهَا ..

الْفَكْرَةُ إِنْنِي وَلَدْتُ لَا يَسْعَنِي أَنْ أَتَخَلَّصَ مِنْ تِلْكَ الْفَكْرَةِ
، حَتَّى النِّجَاةُ مِنَ الْمَوْتِ صَعْبَةٌ جَدًّا ، أَخَذْتُ أَمْسَكَ بِيَدِ

أُمي وسكرات الموتِ تقذف بإنفاسها هنا وهناك ،
الليل نال من عيوننا ، أُمي ثابتة أمام الرُكام تستمع إلى
صرخات أبي وأخوتي وأخواتي وهو يستغيثون تتقطع
أنفاسهم برهة ثم يعود الصراخ ، الغبار يأكل نصف
حديثهم ، ثم تختنق أصواتهم من الدماء الغائرة في
حناجرهم .

الليل ثقيل ويحمل الكثير من الموتى ، وذكريات تتحت
في خزانة تلك الذاكرة التي ضجت برائحة اللحوم
البشرية ، ذلك حق تخاصم أهل فلسطين المتعبون ...
القصف أشد والدخان أتت بدخانٍ مبین لم يعد أحداً
يرى الآخر كأنها خطفت أبصارنا ، النيران تأكل
الأحياء ، صرخت إلى أُمي لنهرب ، لم أكن أراها
ولكنني أشعر بأن جسدها قريب من جسدي .

تنتظر لتخرج أبي وأخوتي وأخواتي من ركام الموتى
، البكاء خفق قلبي وجعلني ذو جسد بلا روح ...

أَحَسَّتْ بِإِنِّي أَمْسَكْتُ يَدَهَا وَبَتِ أَرْكُضُ أَلْتَمِسُ طَرِيقًا
لِلنَّجَاةِ ، رُبَّمَا مُسْتَشْفَى وَلَكِنْ قُصِفْتُ رُبَّمَا مَدْرَسَةً
وَلَكِنْ قُصِفْتُ هِيَ أَيْضًا .

رَكَضْتُ كِيلُومِتْرَاتٍ لَعَلَّ هُنَاكَ نَجَاةٌ وَخَلَاصٌ ، لَعَلَّ
هُنَاكَ أَحَدًا يَسْمَعُ صَوْتِي الْمَهْزُومِ ابْتَعَدْتُ حَتَّى وَصَلْتُ
إِلَى خِيْمَةٍ مُهْتَرئةٍ أَسْتَدْرْتُ خَلْفِي لَمْ تَكُنْ أُمِّي مَعِي .
بَلْ كَانَتْ يَدَهَا فَقَطْ مِنْ حَصَلْتُ عَلَيْهَا ؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟؟

أُمِّي تَمَزَقَتْ مِنَ الْقَذَائِفِ ؟؟؟؟؟؟؟

أُمِّي لَمْ تَكْتَمَلْ فِي الْقَبْرِ ؟؟؟

كَانَ شَبَحٌ يَدُ أُمِّي هُوَ الَّذِي أَسْتَمْسَكْتُ بِهِ وَلَمْ تَكُنْ أُمِّي
، عَانَقَتْ يَدَهَا وَقَبَّلَتْهَا وَعَاهَدَتْ بِإِنِّي أَصْنَعُ مُجَسِّمًا
طِينِيًّا لِإِخْلَادِ يَدِ أُمِّي اقْصِدْ شَبَحٌ يَدَهَا الَّتِي كَانَ بِرِفْقَتِي
طُولُ الطَّرِيقِ ..

مُنْذَ ذَٰلِكَ الْوَقْتُ ، أُسِيرَ مَقْصُوصَةُ الْإِجْنَحَةِ ، هَزِيلَةُ
الْجَسَدِ ، جَنَاحٌ جَرِيحٌ أُكْمِلَ بِهِ السَّيْرُ عَلَى رَصِيفِ
الْعُمَرِ الشَّاقِّ ، وَجَنَاحٌ هُنَاكَ مَدْفُونٌ بِكَفٍّ أُمِّي .

ضجيج الحرب

كُنْتُ أَنَا كَبِيرَةَ إِخْوَتِي الصَّغَارِ، لَمْ يَكُنْ سِوَايَ يَعْلَمُ تِلْكَ
الْحَقِيقَةَ الْقَاسِيَةَ وَالْمَوْجِعَةَ، لَسْتُ سِوَى بِنْتِ الْخَمْسَةِ
عَشَرَ رَبِيعاً مِنْ عُمْرِي الضَّائِعِ بَيْنَ أَزْيَزِ الرِّصَاصِ ،
وَالْقَذَائِفِ الْمُوحِشَةِ فِي عِرْقِ السَّمَاءِ ..

كَانَ يَوْمٌ يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شَبَاباً، إِخْوَتِي الصَّبِيَّانِ
يَجْلِسُونَ أَرْضاً فِي تِلْكَ الْخَيْمَةِ الَّتِي جَلَبَهَا لَنَا وَالِدِي،
كَيْ نَقِي أَنْفُسَنَا الْمَوْتَ الْمَتْرَبِصَ عَلَى الطُّرُقَاتِ،
لَكِنَّا وَمَعَ أَنَّنَا قَوْمٌ يُحِبُّ مَا قَسَمَ لَهُ اللَّهُ مِنَ الْحَيَاةِ،
فَإِنَّا قَوْمٌ لِسَانُ حَالِهِ مِنْ لِسَانٍ " فَلَسْتُ أَبَالِي حِينَ
أُقْتَلَ مُسْلِمًا | عَلَى أَيِّ جَنْبٍ فِي اللَّهِ كَانَ مِصْرَعِي " !!
عَاهَدْنَا بِأَنَّهُ سَيَجْلِبُ لَنَا طَحِيناً حَتَّى نَصْنَعُ مِنْهُ خَبْزاً
طَرِيًّا !

وَسَيَعُودُ بِدَقِيقٍ حَتَّى نَسُدَّ رَمَقَ جُوعِنَا ؟

هذه كانت المرة الأولى التي أكبر فيها بشكل رهيب،
في هذا الوطن الولد يكبر حزناً وكمداً وغماً على ما
فارق، ربما نحتاج بعدها سنوياً حتى يشفى ذاك القلب
التائه السقيم ..

الليل التحم في جوف السماء.. الدجى يأكل النور
حيث يصيبه.. وأبي لم يأتي بالدقيق وإخوتي لم يأكلوا
بعد ، طرقات جارنا في الخارج تصبُّ بوابلٍ من
رُعب.. أبي لم يأتي لماذا اتى هو بالدقيق بدلاً عن أبي
؟؟؟؟

شقت أُمي باب الخيمة ، وأبتعدت قليلاً حتى لا يسمعوا
صبياني ما سيقوله جارنا إلى أُمي بشأن أبي، لم أدرِ
لما خطر ببالي خاطرة صبياني لا إخوتي..، لربما
أدركتُ بسرعة أنهم تيتَّموا من أب.. لم أُنجس

لسماع النبأ الذي أتى به.. وأوجستُ في نفسي الشَّيْمةَ
كمدًا خيفةً شَيْمةً.. هذا ابي وأريد أن أعلم ما حلَّ به !!
"كان يَرْتَقِب في المَدِينَة خائفًا من أن لا يعود لكم بكيس
من الدقيق ، محلات التجارية أُغْلِقَتْ مُنْذُ زَمَنٍ ،
والمُساعدات العَرَبِيَّة لا تَكْفِي لِربْعٍ من الأُناس هنا ...
لَمَحْتَهُ هُنَاكَ ، حيث حشود القوم تَأْكُل بعضها.. كان
يُزاحم على كَيْسٍ من الدقيق حتَّى يَجْلِبَهُ لَكُمْ ، لَكِنْ
اِسْتَهْدَفْتَهُ عِدَّة رِصاصات من مَكَانٍ بَعِيدٍ ، وأُغْشِيَ
أَرْضًا.. زوجك اِسْتَشْهَدَ من أَجْلِ أن يَأْتِيَ لَكُمْ بهذا
الطعام ..!"

لم يذكر شيئاً سِوَى الشَّهادَتَيْنِ !!!
اِسْتَشْهَدَ حتَّى لا يَنَامُونَ أَوْلادَهُ جوعى !! ثم غادر...

أَعَدْتُ أُمِّي الخبزَ لِإِخْوَتِي الصِّغارِ والدمع يشقُّ وجهها
المَهْموم.. تَقصُّ عَلَيْهِم قِصَّةَ بَطْلِ أُسْطُورِيٍّ ذَهَبَ

لِيَأْتِي بِطَعَامٍ إِلَى أَطْفَالِهِ فَعَادَ شَهِيداً، وَكَيْفَ زَاحِمُ
الْمَوْتِ مِنْ أَجْلِهِمْ ، هُمْ لَا يَدْرِكُونَ بَإِنِّهِ أَبَاهُمْ هُوَ نَفْسُهُ
الْبَطْلُ وَأَنْ ذَاكَ الرِّغِيفَ الَّذِينَ بَدَأُوا يَأْكُلُونَهُ كَاللَّحْمِ
عَلَيْهِ دَمُ أَبَاهُمْ الشَّهِيدِ ..

أَمَّا أَنَا !!

فَلَمْ أَعِدْ أَكْلَ الْخُبْزِ مُنْذَ ذَلِكَ الْيَوْمِ .. وَلَمْ أَعِدْ أُسْتَطِيعُ
أَنْ أَرَاهُ سَوَى كِسْرٍ مِنْ دَمِ شَبِمْ !

قصة فائزة بجائزة عالمية 2024

بين شهيدين

كُنْتُ أَحْضَنْ أُمِّي مَذْعُورًا ، خَائِفًا ، أَتَمَسَّكَ بِيَدِهَا
الدافنتين حتى يسكن روعي الثَّكِين ، القَصَف وأصوات
الصَّوَارِيخ تتلاعب في السَّمَاء بلا تَوَقُّف ، الليل ثَقِيل
وْخَانِق ، وابل القصف يهطل من كل حدبٍ وصوب ،
أرى أشلاء النَّاس تتطايرُ عُصْبَةً من النافذة
المَكْسُورَةِ.. ثم أَعْطُ وَأُنْدَسُّ فِي حَضْنِ أُمِّي الْأَمِينِ
فِيَسْكُنُ الْخَوْفُ قَائِلًا: " لَا تَحْفَلْ بِي وَلَا بِوَابِلِ الْقَصَفِ
وَلَا بِهِمْ إِنَّ الْأَمْرَ إِلَّا لِلَّهِ وَإِنَّهُ لَأَرْحَمُ بِكَ مِنْ صَاحِبَةِ
هَذَا الْحَضْنِ التُّودَدِ...!"

أَسْمَعُ خُطَوَاتِ تَقْتَرِبُ مِنْ بَابِ بَيْتِنَا بِسُرْعَةٍ وَأَهْلَةٍ ،
طَرَقَاتِ طَالَتِ الْحَجَرِ وَالشَّجَرِ ، الْمَوْتُ يَقْتَرِبُ ، لَا

مَفر ، ولا نَجاة ، ولا هُنالك مَخرجاً أبداً.. ونحن
ذَوُون إذا انْتَسَب!

أدركت "يَمّا" شراً قَادمًا مع قَادم الخُطُوات، فأَمسكت
بكتفي قائلة: اسمع يا ابني، سأُخبِّئك وراء الخزانة، لا
تخرج، ولو أخذوني أو ضربوني، لا تُصدر صوتاً
واقطع نفسك.. وكنتُ أشعر في نظراتها الحزينة كما
لو أنها تحفظُ ملامحي الشَّبِيهة بها، وتُخبِّئني في كَبِدها
الذائِبَة!

سقط الباب بركلة واحدة من الأذلاء، ودخلوا بِجُمُوعٍ
هائلة من الجنود، المُدَجَّجين بالسلاح ، خَلْفَ الخزانة
أَتَقَوِّعُ خائفاً ، أنفاسي تَسِيرُ مُثْقَلَةً كَأَن هُنالك حجارة
ضَخمة على صَدَري الصَّغير ، ولكن إذا أَصْدَرت
صَوْتاً سَيَقْضَى عَلَيْهِ بلا حَولٍ مِنِّي ولا قُوَّة ...

إنها ليست جريمة ..

إنها إبادة ..

لا يَمَسحُ ذاكَ المَشهدَ من عَقلي ..

لا أريدُ المَوْتَ ..

سَأخبرُ الجميعَ ...

سَأنهضُ من تَحْتَ المَوْتِ والركامِ إلى هُنالك .

إلى الحَقِّ والحَقِيقَةِ ..

رأيتَه أَجَلَ رأيتَه لم أنسى مَلامحَه الإِفريقيَّةَ ما دُمْتُ
حياً أسودَ البَشَرَةِ، طَوِيلَ، يَلبَسُ اللباسَ العَسْكَريّ،
سِلَاحَه مَمْدودَ على كَتِفِهِ وسِلَاحَه الآخرَ صَوْبَهُ بِأَتْجَاهِ
أُمِّي ، وهي تَحضُنُ أخِي الجَنينَ في أَحشائِها صُراخِها
لم أَشَفَ مِنْه وَلنَ، كُنْتُ أَنتَظِرُ حَتَّى أَكُونَ أَخاً كَبيراً
يَحْتَمِي بِه أَخاهُ، لَكِنني احْتَمَيْتُ بِهِم الآنَ وَضَحَّيَا مِنْ
أَجَلِي .. كُنْتُ أريدُ أَنْ أَقاسِمَهُ الأَلعابَ والسَّكَاكِرَ ونَلهو
في حَديقَةِ البَيتِ !

تَقْدَمُ مَفَاخِرَةٌ نَحْوُ أُمِّي ، لَمْ يَكْتَرِثْ لِصِرَاحِهَا ، لَمْ
يَكْتَرِثْ لِأَنَّهَا مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ ، صَوَّبَ
الرَّصَاصَةَ عَلَى بَطْنِهَا حَتَّى فَقَدْنَا أَخِي ، ثُمَّ أَطْلَقَ بَضْعَ
رِصَاصَاتٍ عَلَى بَطْنِهَا حَتَّى اسْتَشْهَدَتْ أُمِّي أَمَامَ عَيْنِي
وَلَا يَعْلَمُ ذَلِكَ الْجُنْدِيُّ بِأَنَّنِي هُنَاكَ خَلْفَ الْخِزَانَةِ..
أُورِخُ مَعَالِمَ قِصَّةٍ لَا لُغَةَ تَصِفُ الْكَمْدَ الَّذِي تَحْمِلُهُ..
أَبِي كَانَ نَائِمًا نَهَضَ بَعْدَمَا مَا سَمِعَ زَخَاتِ رِصَاصٍ
فِي بَيْتِنَا ..

أَتَوْا بِهِ أَمَامَ عَيْنِي ، لَمْ أَعْلَمْ مَاذَا سَيَفْعَلُونَ بِأَبِي
فَالْحَرْبُ لَمْ تَضَعْ أَوْزَرَاحَهَا وَلَمْ يَكُنْ هُنَاكَ سَبِيلًا
لِلْهَرُوبِ وَالنَّجَاةِ مِنْ بَيْتِنَا الْمَحَاصِرِ بِأَعْدَاءِ هَائِلَةٍ مِنْ
الْجُنُودِ ..

الْجُنْدِيُّ ذَاتَهُ ، وَالْمَوْقِفُ ذَاتَهُ ، وَالرِّصَاصُ وَالسَّلَاحُ
ذَاتَهُ أَطْلَقُوهُ عَلَى رَأْسِ أَبِي حَتَّى اسْتَشْهَدَ هُوَ وَأُمِّي فِي
يَوْمٍ وَاحِدًا ، وَالْمَجْرِمُ كَانَ وَاحِدًا وَأَمَّا الْأَعْرَابُ إِذْ هُمْ
عَلَيْهَا شُهُودٌ !!

نَمَت كُلُّ ذَلِكَ اللَّيْلِ بَيْنَ جَنَّةِ أَبِي وَأُمِّي، وَالْدَمَ يَسِيحُ فِي
بَيْتِنَا، وَعَيُونِي تَنْظُرُ إِلَيْهِمْ هُنَاكَ.. مِنْ شِقِّ الْخَزَانَةِ،
وَشَقِّ قَلْبِي

نَجَوْتُ جَسَداً ...

وَقَتَلْتُ رُوحاً

ثلاثة إخوة

منذ ولادتي لتلك الساعة المريرة التي نالت من قلبي ،
تلك الساعة التي شعرتُ بأنني أكبر من عمري بعقود ،
نحنُ أربعة من الأخوة ، أوترت أُمي الأخ الخامس
في الحرب فاستشهد جوعاً وهواناً وأخي الصغير
استشهد وهو في الطريق لالتقاط الفتات الذي يرميه لنا
"الإذلال الجوي" سعيد اسماء أبي هكذا مُنِياً نفسه بأن
يحمل صغيره من اسمه نصيباً في رُقعة قَلَمَا
تزرورها السَّعادة.. أيالقساوة أَلَا يحمل المرءُ اسمه أو
بعضه!

ما تَبَقَى مِنَا خَمْسَةٌ ، أُمي وأبي وأخوتي الأثنين وأنا
التي تَجَرُّ كُرْبَ الأيامِ بعمرها الثالث عشر ، أخي
الأصغر قَاسِمٌ تِسْعاً وأخي الأكبر مَرِيضاً مَشْلُولٌ كُلياً
وعنده إضطرابات نفسية وعقلية جَلَسَ منذ دَهراً على
كُرسيه المُتحرّك لم يَسِير يوماً على تلك الأرض
المُقدسة .

قَبْلَ بَضْعِ ثَوَانٍ مِنْ تِلْكَ الْمُصِيبَةِ كُنَّا فِي الْخِيْمَةِ نَسْمَعُ
وَإِبْلَ الْقَصْفِ يَثِيرُ فِي جَوْفِ السَّمَاءِ بِلَا رَأْفَةٍ
بِالْمُسْتَضْعَفِينَ مُنْتَظِرِينَ حَتْفَنَا الْآخِرَ ، حَتَّى جَاءَ
مُرْسُولُ النَّذَارَةِ مِنَ الْخِيْمَةِ الَّتِي بَجَانِبِنَا وَالَّتِي اسْتَشْهَدَ
مِنْهَا تِسْعٌ .. : " يَلَا كَلْشِي يَطْلُعُ لَازِمٌ نَنْزَحُ عِ الْجَنُوبِ
رَحْ يِقْتَحْمُوا الْمَنْطَقَةَ " .

خَرَجْنَا مُتَشَبِّثِينَ بِأَنْيَابِ الْحَيَاةِ الْغَادِرَةِ مَشِينَا عَلَى
أَرْصِفَةِ الْحُزْنِ وَالظُّلْمِ وَالْقَهْرِ يَتَشَبَّثُ بِأَعْمَارِنَا الطُّفُولِيَّةِ
الْهَشَّةِ ، قَلْبِي يَأْكُلُهُ الضَّنْكُ كَانَ لَوْ بُودِي يَقْتُلُونِي أَفْرَادَ
وَجَمَاعَاتٍ عَلَى إِنْ مَسَنَا تِلْكَ الذُّوْلُ وَالطَّرِيقُ الطَّوِيلُ
إِلَى الْجَنُوبِ مَشِينَا أَمْتَارِنَا وَمَا مَسَنَا مِنْ لُغُوبٍ وَلَمْ
تَدْمَعْ لَنَا عَيْنٌ حَالِنَا كَأَخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا إِلَى الضَّفَةِ
الْأُخْرَى ، وَأُمِّي وَأَبِي خَلَفْنَا وَأَسْمَعُ أُرْتِطَامَ كُرْسِيِّ
أَخِي مِنَ الْأَحْجَارِ الْبُيُوتِ الْمَقْصُوفَةِ .

يَمَّا الْكُرْسِيِّ مَا بِيْمَشِي " هَكَذَا قَالَ أَخِي قَاسِمُ الَّذِي كَانَ
يَجْرُ أَخِي الْمَرِيضُ الَّذِي نَامَ اللَّيْلُ تَحْتَ عَيُونِهِ كَمْدًا

وشجناً. استدارت أُمِّي فَكَانَتْ عَاقِبَتُهَا رِصَاصَتَيْنِ مِنْ
جُنْدِي مَرَاهِقٍ كَانَ يُرْتَبُ صُفُوفَ الْجَيْشِ ، أَمَّا أَبِي
فَاحْتَجَّ عَلَى مَوْتِ أُمِّي فَأَتَاهَا ذَلِكَ الْجُنْدِي .

رَأَيْتُهُ ، أَسْتَطَعْتُ أَنْ أَحْتَفِظَ بَوَجْهِهِ الْقَاتِلِ وَمَعَالِمِ وَجْهِهِ
الْقَبِيحَةِ ، طُرِحَ أَبِي أَرْضاً وَأُطْلِقَ ثَلَاثَ رِصَاصَاتٍ
حَتَّى مَضَى أَبِي وَأُمِّي مَعاً ثُمَّ صَرَخَ فِينَا : "
يَلَا أَمْشُوا " بِلُجْهَةِ الْعَبْرِيَّةِ .

لَمْ أَلْتَفِتْ إِلَى أُمِّي وَأَبِي أَوْجَسَ فِي نَفْسِي خِيفَةً لَمْ
أَسْتَطِعْ أَنْ أَلْتَفِتْ حَتَّى أَلْقَى نَظْرَةً آخِرَةً ، وَرَائِي قَاسِمٌ
يَجُرُّ كُرْسِيَّ الْمُتَحَرِّكِ الرَّعْبَ التَّصَقُّ بِبِيْدِي لَمْ يَكُنْ
بِوَسْعِي مُسَاعِدَتُهُ سِوَى الْهُرُوبِ مِنْ عَالَمِ الْقَتْلِ الْمَرِيرِ
.

تَمَنَيْتُ لَوْ أَنَّ ذَلِكَ الْجُنْدِي أَطْلَقَ عَلَيْهِ الرِّصَاصَ أَوْ
أَعُودَ إِلَى الْخَلْفِ وَأَدْفَنَ أُمِّي وَأَبِي حَتَّى يَطْمَئِنَّ قَلْبِي
عَلَى مَصِيرِهِمُ الْمَجْهُولِ .

مَشَيْتُ تَائِهَةً واللحوم البشرية في كل حدبٍ وصوبٍ
نداء قَاسِمٍ يُذِيبُ كَبْدِي ، بَكَيتُ مِنَ الْعَجْزِ ، بَكَيتُ أُمِّي
وبَكَيتُ أَبِي ، وَقَاسِمٍ وَأَخِي والوُجُوهُ الْمُتَعَبَةُ ، بَكَيتُ
ديار الإسلام التي خَرَبْتُ ولها عند الصَّهَابَةِ عُمَرَانُ ،
بَكَيتُ فَالْأَسْطِينِ الْوَحِيدَةِ فِي هَذَا الْعَالَمِ .

أَسْمَحْ دُمُوعَ الْقَهْرِ فِي كُفِّي ثَوْبِي فَلَا زَالَ الْحَقِّ فِي
الْبُكَاءِ لِبَضْعِ دَقَائِقِ مَعْدُودَاتِ ، أَخِي سَقَطَ عَنْ كُرْسِيِّهِ
الْمُتَحَرِّكِ تَكَسَّرَتْ عَجَلَاتُهَا الْأَمَامِيَّةُ ، يَبْكِي قَاسِمٌ
عَجْزُهُ عَنْ حَمَلِ أَخِيهِ ، لَمْ أَسْتَطِعْ حَمْلَهُ جَلَسْتُ عَلَى
الْأَرْضِ أَبْكِيهِ وَيُبْكِينَا مِنْ سَيَاطِعِهِ وَمَنْ سَيَعْنَتُنِي بِهِ
وَيَجْلِبُ لَهُ دَوَاءَهُ ، تُرْثِينَا غُبَارُ الْأَرْضِ وَحِطَامُ الْبُيُوتِ
الْمَدْمُورَةِ ، وَلَمْ يَقْوُوا عَلَى حَمَلِ أَخِيهِمُ الْمَقْعَدِ ، أَمَانَتُهُمْ
الصَّغِيرَةُ.. لَا أَدْرِي مَتَى تَيْسِرُ لِلنَّاسِ أَنْ يَحْمِلُوهُ
وَيُصْلِحُوا الْعَجَلَةَ الَّتِي كُسِرَتْ ، لَكِنِّي أَدْرِكْتُ بَعْدَهَا أَنْ
تَقُلْ ذَاكَ الْيَوْمَ لَمْ يَكُنْ مِنْ أَخِي بَلْ كَانَ مِنْ قَلْبِي حِينَ

خسرتُ كل شيء.. والله لم يكن ثقيلاً بل نحيفاً تكادُ
ترى عظامه من الجوع والبؤس..

لم يكن ثقيلاً إنه أخي !

قانون بقتاع أسود

بَيْتُهُ الْمُتَجِّهَ نَحْوَ قُبَّةِ الصَّخْرَةِ الْمُقَدَّسَةِ ذُو إِطْلَالَةٍ ثَمِينَةٍ
لَا تُبَاعَ وَلَا تُقَدَّرُ بِثَمَنِ ، كَانَ كُلُّ شَيْءٍ يُورَثُهُ أَوْرَثُهُ
عَنْ أَبِيهِ الَّذِي ظَلَّ مَرَابِطًا عَلَى زَقَاقِ الْأَبْوَابِ الثَّمَانِيَةِ
وَعَلَى عَتَابِ بَابِ الْعُمُودِ يَبِيعُ النِّعْنَاعَ وَالْكَعْكَ حَتَّى
تُوفَاهُ اللَّهُ وَهُوَ سَاجِدًا بِصَلَاةِ الْفَجْرِ فِي الْمَسْجِدِ
الْأَقْصَى ...

مَكَثَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ سَنَوَاتٍ وَسَنَوَاتٍ ، فِي كُلِّ زَاوِيَةٍ
كَانَتْ لَهُ ذِكْرَى وَعَلَى تِلْكَ النَّافِذَةِ الَّتِي تَطْلُعُ عَلَى قُبَّةِ
الصَّخْرَةِ وَأَصْوَاتِ أَجْرَاسِ الْكَنَائِسِ النَّصْرَانِيَةِ تَضَجُّ
فِي كُلِّ شَوَارِعِ الْقُدْسِ الْعَتِيقَةِ ، رَائِحَةُ الْبُخُورِ وَالتَّوَابِلِ
وَالْتُّرَاثِ كَانَتْ كُلُّهَا شَاهِدَةً وَشَهِيدَةً عَلَى مُلْكِيَةِ تِلْكَ
الْأَرْضِ .

لَكِنْ لَا نَجَاةَ لَكَ مِنْ تِلْكَ الْقَوَانِينِ الْإِسْرَائِيلِيَةِ اللَّاعِدِيَةِ
، حُجَّةٌ وَرَاءَ حُجَّةٍ حَتَّى يَسْتَظِلَّ الْإِسْتِعْمَارُ حَوْلَ كُلِّ

مناطق القريية من المسجد الأقصى حتى تُقيم دولة
يهودية بلا أرض ولا تاريخ يُثبت ذلك ..

جاءوه جندي بلباس مدني يحمل ورقة زائفة ذات حبرٍ
باهت ولغةً مجهولة الحق بأمراً بهدم المنزل لأنه ليس
مُرخصاً وهو مُلك لدولة المزعومة .

المكان الذي بناه أبي حتى أنحنى ظهره في نظرهم
كان يخالف الخطة المطروحة في خرائطهم ، أمرنا
بإخلاءه لأنه ليس لنا الحق فيه وتلك الأرض الذي
بنيت على أنقاضها هي ملكاً لهم وتلك الترابُ
والحجارة القديمة كلها رهن الهدم ..

جاءت الجرافات بفمها الفولاذي تقطع تلك البيت إرباً
إرباً، تهدم حاكورة العنب، ودوالي أبي عمرها أكبر
من دولتهم وحُجرات قبل أن يأتوا إلينا بقرون ، هدم
البيت ترحل عيوني على كل صرخة طفلاً كبر على
أعاقبه ، تجمعات الأعياد والفطور الرمضاني كلها

كانت كالشريط أنت بسرعة البرق حتى نالت تلك
الجرافات من
البيت .

أم عامر

بعد ساعات من التنقل بالحافلات وأخيراً ستخطو أم عامراً طريق سجن النقب الصحراوي الذي يقبع فيه أبنها الأكبر عامراً منذ سنوات ليست بالقصيرة ، هذه الفرصة الوحيدة التي سَحت لها السلطات الإسرائيلية بزيارة أبنها المعتقل بعد سنتين من رؤية وجهه من فتوحات نافذة السجن وتبادل الحديث بهاتفٍ في الخارج ...

الطريق في عينها ممزق ، البعد والحِرمَان جعلها تبدو كأنها مُسنة ، فهي حملته في بطنها وعاء ، وتبادلت معه سنوات المدرسة حتى غدا شاباً ، يافعا ، مقاوماً ، وأسيراً تحصد الزنازين من شبابه ..

إذن كم تبقى من الوقت !!

تَسأل شقيقته " منى " والانتظار ملء قلبها ، لم تعد تصبر فالشوق لِعَمر تجاوز الحدود الحمراء ، جلبت

له طَعَامه الذي أَحَبهُ ، ولباس يَقيهِ من برد الشِّتاء ،
وجفاف ذاك المَسْلَخ الصَّحراوي ..

سَتَنْتَظِر بعض ساعات أخرى !!

فالصَّف الذين يريدون وَجَه أبنائهم طَوِيلاً ، ولا يُسَمَح
للأهل سِوى خمسة دَقَائِق إلى عشرة دَقَائِق ، تمر
كَلَمَح البَصَر ، حتى لم يَكُن هُنالك وقتاً للاحتفاظ بمعالم
وَجْههم خَلْف هذا الزجاج الذي يَحجب الصَّوْت
والعناق ..

تَقَدَّمت جُنْدِيَّة رُوسِيَّة ، شَقراء ، على أجساد النِّسوة
بآلة التَّفْتِيش عن أي شَيْء في أعينهم مَمْنوع من
الوصل في أيدي الأسرى ، هاتِفاً أو غير ذلك من تلك
القوانين الوهمية لَكُنْها لا تبال بتلك الجنود وذاك
الجدار الحديدي كل ما تريده هو عامراً محادثة نفسها
:

تُرى كيف أَصْبَح طِيلَت هذه السنوات ؟

هل كان ينام جيدا ويأكل جيدا ؟

هل كان يشرب دواءه بعدما أعلمتنا السلطان بإصابته
بالسرطان الرئوي !

تَتَحَدَّثُ وَضَرَبَاتِ قَلْبِهَا سَرِيعَةَ الْمَدَى ، الشَّوْقُ قَاتِلٌ ،
وَالْإِنْتِظَارُ يُمَزِقُ الْفُؤَادَ ، لَمْ يَتَبَقَ سِوَى عَشْرَةِ نِسْوَةٍ
وَسَيَتِمُ إِدْخَالُ الْجَمِيعِ لِمِيزَانِ ..

هذه المرة الأولى أَلْتَقَتِ عَيْنُ أُمِّ عَامِرٍ فِي عَامِرٍ ،
هَزِيلًا لَمْ يَكُنْ سِوَى عِظَامٍ مُهْتَرئةٍ الْمَرَضِ فِي
لِحَظَاتِهِ الْأَخِيرَةِ لَمْ تَعْلَمْ هَلْ سَتَرَاهُ مَرَّةً ثَانِيَةً أَمْ لَا ..

لَكِنْ هَا هُوَ حَيٌّ يُرْزَقُ فِي لِحِيَّتِهِ السُّودَاءَ وَلِبَاسِهِ
السَّجْنَ الْبُنْيَ الْمَرْقَمَ عَلَى ظَهْرِهِ كَمَا لَوْ إِنَّهُ فِي نَظَرِهِمْ
مُجَرَّدُ رَقْمٍ لَا قِيَمَةَ لَهُمْ هُنَا فِي الْمَسَلْخِ ..

تَتَحَدَّثُ وَالْدَمْعُ يَسْكُبُ عَلَى وَجْنَيْتَيْهَا ، عَامِرٌ ، عَامِرٌ .

كانت تُود لو إنها تحضنه كعناقها له في يوم مولده
ولكن فرق بينهما تلك الزجاج وذاك الجنود .

انتهى الوقت , انتهى الوقت , الكل للخارج

قالها ذاك الجندي الذي لم يتجاوز العشرون , لم تهناً
الأمهات برؤية ابنائهن سوى بضع دقائق وغادرن من
موضعهن إلى الحافلات ليعودوا إلى بيوتهن بصور
تذكارية من وجوه أبنائهن .

تُرى هل سأرى عامراً مرة أخرى ؟!

هل سأعانقه حيَّ أم سيغادر ذاك العالم القبيح فالمرض
نال منه ومن أمعائه !!

غادرت أم عامر وبصرها على تلك النافذة التي رأيت
منها أبنائها بعد سنتين حرمان .

سجع الأقصى

أَنَا بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ مِنْ حَقِّ الْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ،
وَأُولَى الْقِبْلَتَيْنِ فِي مَا مَضَى مِنَ الْأَزْمَانِ،
وَالِي تَشُدُّ الرِّحَالَ مَعَ أَطْهَرِ الْبُنْيَانِ، لَكِنِّي لَا يُرْفَعُ فِي
الْأَذَانِ إِلَّا بِدَمِّ وَصَلِ الرُّكْبَانِ، وَلَا يَدْخُلُنِي مُؤَمَّنًا
مَحْمِيًّا إِلَّا حَثَالَةُ الْإِنْسَانِ، أَمَا شَرِيفُهُ فَيُقَيَّدُ بِدَمِهِ النَّازِفِ
إِلَى سَطْوَةِ السَّجَّانِ.. إِلَيَّ وَمَنِي كَانَ لَطِيفِ
السَّيْرَانِ، بِالتَّارِكِ فِينَا عَظِيمِ الثَّقَلَانِ.. وَالْآنَ لَا خَيْرَ
عَلَيَّ وَلَا سُلْوَانَ، أَضَاعَ الْكُلَّ بِرَاشِنِ الْجَرَرِ
وَالطُّغْيَانِ !

عِنْدِي اطمأنَّ الْبَرَّاقُ بِالْمُدْلِجِ الْأَمِينِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ وَعَلَى أَصْحَابِهِ الْمُكْرَمِينَ، هُنَا الْخَيْلُ الْعِتَاقُ،
الْمُغِيرَاتُ بِمَنْ لَعَهْدَ اللَّهِ سَبَّاقُ، ذُو سَيْفٍ هَجَوِ إِخْوَانَ
النَّفَاقِ، مَنْ يَضْحَكُونَ عَلَى أَنْقَاضِ دِمَاءٍ تُرَاقُ.. وَعَلَى
كَلَمِي عَانَقْتُ كُلَّ الْحَائِرِينَ مُوَاسِيًا، وَقَلْبِي هُنَا بَيْنَ
الْحَنَائِيَا مَمَزَّقُ !

ذا أنا جُرْحِي غَائِرٌ، فَمِنْ عَبْرِي لِلَّهِ سَائِرٌ، مِنْ لِهَذِهِ
الْأُمَّةِ ذَاخِرٌ، وَلِظُلُمَاتِ الدُّجَى نَائِرٌ، لِلْمَسْجِدِ
الْجَرِيحِ نَاصِرٌ، وَلِلْعَدَى دَاخِرٌ، وَلِلدِّينِ اللَّهُ غَاضِبٌ
وَنَائِرٌ !

اسْتَوْلَى عَلَى الْعَدُوِّ، وَعَظَلَ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ الرُّوَّاحَ
إِلَيَّ وَالْغَدُوِّ، وَلِجُرْحِي مَآمِنٍ عِزَاءٍ أَوْ سُلُوءٍ.. وَإِنِّي -
وَرَغْمَ ذَلِكَ - عِزَّةٌ إِسْلَامِي بِأَهْرَةِ الْإِيَّاتِ، بَائِنَةٌ
الْآيَاتِ، قُمْرٌ وَضَاحٌ وَسَطُ الظُّلُمَاتِ، غُصْنٌ
مُبَارَكٌ مُخْضَرٌّ وَسَطُ الْفَلَاةِ !

حَطَّتْ حَجْرِي عُصَبٌ حَازَتْ مَعْلَى الْقِدَاحِ، وَتَبَرَّجَتْ
لَهَا مِنَ الْفَصَاحَةِ كُلِّ خُودِ رِدَاحٍ، يَا تَالِيَاً نَظْمِي بِكَمْدٍ
لَا أَطْلُبُ مِنْكَ لَهُ اسْتِجَازاً وَلَا عَلَيْهِ نَوَاحٍ، بَلْ حَيَّ يَا
ابْنَ الْإِسْلَامِ عَلَى الْجِهَادِ وَحَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ !

عندما عُدْتُ من الموت أبحث عن الحقيقة
قتلوني بحجة التمرد .

الأرض المقدسة

هَـأَ أَنَا ذَا أُسِيرُ مُوَلِيًّا ظَهَرِي لِأَوَّلِ قِبْلَةٍ لِدِيَارِ الْإِسْلَامِ،
دِيَارِ خَرِبَتْ وَلَهَا عِنْدَ الصُّهْيُونِ عُمَرَانُ، أُسِيرُ بِكُلِّ
الْكَمْدِ وَالذَّلَّةِ الَّذِي يُمَكِّنُ أَنْ يَحْمِلَهُ امْرُؤٌ عَلَى كَاهِلِهِ،
بِفَمٍّ يَقْطُرُ دَمًا مِنْ صَفْعَةِ ذَاكَ الْجُنْدِيِّ الْمُرَاهِقِ، ذُو لَوْنِ
الزَّبَقِ، الَّذِي أَتَى مِنْ أَقْصَى الْأَرْضِ، بُغْيَةِ أَوْرَاقِ
مُلُونَةٍ، لَا يَعْرِفُ أَقْصَى وَلَا أَرْضًا وَلَا زَيْتُونًا..

لَقَدْ أَتَيْتُ مُيَمَّمًا فُؤَادِي شَطْرَ تِلْكَ الْقَبَةِ الذَّهَبِيَّةِ الْمُثْمَنَةِ
الْجَمَالِ، كَالْتَهَجُّدِ فِي حُجُوبِ الْأَصَالِ، أَتَيْتُ بِكُلِّ الْفَرَحِ
الْبَرِيِّ الَّذِي يُمَكِّنُ أَنْ يَحْمِلَهُ طِفْلٌ فِي الْعَاشِرَةِ مِنْ
عُمُرِهِ، قَالَ لِي أَخِي الْبِكْرُ رُوحُ! إِنَّتِ صَغِيرٌ تَخَافِشِ..
مَارِحٌ يَمْنَعُوكَ مِثْلَ مَا يَمْنَعُونَا أَحْنَا الشَّبَابِ " .. كَيْفَ
فَرِحْتُ بِكَلَامِهِ وَنَسِيتُ أَنَّ الْخَائِنَ مِنْ لَا يُمْنَعُ،
وَالْمُتَخَاذِلَ مِنْ بِهِ لَا يُنْكَلُ وَيَفْجَعُ، فَاسْتَدْرَكْتَنِي سَنَةً
الذِّكْرَى حَمْدًا لُجَاعِلِ اللَّيْلِ سَكْنًا وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ
حُسْبَانًا، الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى ذِكْرَاهِ الَّتِي أَزَالَتْ غِشَاوَةَ فَرَحِي

السَّادَجُ، حينما قال لي ذاك المراهق ذو الدَّم البارد "
إِنْتَ مَمْنُوعٌ تَفُوتُ! .. فترجَّيْتُهُ، وبكيتُ يشهدُ الله،
واقتربت من أن أرتمي على رجليه ليسمح لي بسجدة
في الأقصى، فأثنتني عزة صاحب الحق عن هذا،
فرفعتُ يدي محتجاً فكان هذا كافي ليُشعل حنقه
وذلك ليصفعني بجهد كفه، حتَّى سقطتُ أرضاً..

وها أنا رائحٌ بكمدٍ يفتتُ كبدي الذَّائبة ظُلماً، لا أدري
كيف سقطت.. تلك الفكرة العاتية السَّابِغَةُ لم أعد أشعر
بالألم، ولا أسمعُ احتجاج الناس الذين رُدُّوا كحالي،
ولاسخرية المستوطنين الغادين لأقصانا دون منع ولا
تبع.. لم يعد سواها، كزجاج صلب تفرَّقت شظاياه في
جسدي لا يبرحُ أن يكون فرقاناً بين الذِّلة والعِزَّة فقالت
لي وقد أمعنتُ ما أمعنتُ:

يا أيُّها الغادي وراء السُّور، أحمقُ أنت؟ أجننت؟ من
ذا الذي يولِّي الأقصى ظهره من الأنام جميعاً

لَمْ أَدْبِرْتُ خَاضِعاً بِذِلَّةٍ يَا أَيُّهَا الْآتِ لِمَسْرَى عَزِيزٍ
تَبَحُّثُ عَنْ الْعِزَّةِ، وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ
جَمِيعاً!

فَعُدْتُ دُونَ تَفْكِيرٍ وَلَا خَمَمٍ، عُدْتُ عَازِماً عَلَى اجْتِيَازِ
ذَلِكَ السُّورِ خَافِئاً مُتَحَبِّباً عَنْ جُنُودِ الذِّلَّةِ وَالْهُوَانِ..
وَاجْتَزَيْتُهُ سَاقِطاً عَلَى الْأَرْضِ بِكَسْرِ فِي كَاحِلِي، لَمْ آبِهِ،
زَحَفْتُ لِلْأَقْصَى أَعْرُجُ، هَاهُوَ أَمَامِي حَيْثُ حَجَرِ
الْمِعْرَاجِ، وَهَذَا أَنَا ذَا أَعْرُجٍ لَهُ حَامِلٌ قَلْبِي عَلَى كَفِّي،
وَقَلْبِي يَخْفِقُ فَرِحاً لِسُجْدَةِ هُنَاكَ.. وَلَكِنْ الْمَوْتُ عَلَتْ
وَهُوَ مُعَاوِلُهُ قَبْلَ خَطِيٍّ مِنْ بُلُوغِهِ، كَأَنَّ الدَّهْرَ لَمْ
يَرْضَ بِي مُلَازِماً لَهُ، وَلَا أَنَا مُطِيقُهُ خَصِيماً أُغَالِبُهُ،
فَشَعَرْتُ بِهَا كَوَخْزَةٍ إِبْرَةٍ اخْتَرَقَتْ ظَهْرِي، تَطْلُبُ مِنْ
قَلْبِي السَّمَاحَ وَأَجِيبُهَا، لَا تَحْفَلِي لَعْلَهُ عِقَابٌ لظَهْرِ
وَلَّى مُدْبِراً قَبْلَ لِحْظٍ مِنَ الزَّمَنِ..

وَسُوِّيتُ بِالْأَرْضِ، وَكَانَ وَابِلُ الرِّصَاصِ يَخْتَرِقُ
جَسَدِي تَبَاعاً مِنْ ذَلِكَ الْجُنْدِيِّ الْمَرَاهِقِ.. وَتَذَكَّرْتُ أُمِّي

التي تنتظرُ عودتي وأخي الذي عانقني
فجراً..وابتسمت.. وصعدتُ للبارئ مطمئناً مبتسماً..
ماذا كان يمكنني أن أقدم من هذه الدنيا الغابرة أكثر
من شرف شهيد..

لا تحزني يا أمي فذاك الضئيل الذليل مات ونجوت،
احتضني تراب فلسطين الدافئ كحضنك.. هم باردون
كالأيس كريم يا يمّا، وفلسطين.. لا تحبُّ الأيس
كريم.. فلسطين تحبُّ الرغيف بالزعر.. تحبنا نحن !

لا يعلم وجهته

هل الجنسية الفلسطينية جريمته الكبرى عند الغرب ؟

الأمر الذي رافق الصغير عمر أثناء هجرته من
فلسطين إلى بريطانيا مع أهله ، كان لا يزال طالبا
مدرسيا ذكيا ، يُشبه فلسطين بلامحه ، جميلا كحيفا ،
معالم وجهه تروي الظلم البغيض الذي نال منه منذ
الصغر ، عندما أقدم الاحتلال على قتل أمه في الأسر
، مما أضر إلى الرحيل مع والده وأخته الكبرى إلى
الغرب حيث عمل والده هنالك وجامعة أخته في
الدكتوراة العلوم السياسية !!

سجله والده في مدرسة بريطانيا Reading School
في ريدينج ، حتى يتمكن من تمثيل صورة فلسطين
العربية في بيئة أوروبية ، لكنه واجه اضطهاد عرقي
، من جنسيته الفلسطينية ، هذه المدرسة لا تعترف
بفلسطين ولا تتقبل فكرة فلسطين على أراضيها ،

واجهُ جحودَ نفسيةٍ شديدةٍ من زملائهِ ومعلميه
وسخريتهم منه !!

ما هي تلك الجريمة التي أرتكبتها !!

ألم يروا تلك الأشلاء في الطُرقات ، وتلك الفتيات
والفتية الذي قَضوا منقوصي الأطراف ، حتّى أنا لم
أنجي من تلك الجنود ومن الصمت العربي !!

قضى على طفولتي منذ أن تصدرت الأخبار عن إعدام
أسيرة في السجون إنها أُمي سُجنت منذ كُنت صغيراً
جداً ، وارتحلت بِجحةٍ وهمية ..

لم أتعلم لغة الحروب ، لستُ أُرهابي ، هم من الذي
يقسموا الطُرقات من الحواجز ، هؤلاء الإرهاب ،
ولكن ليس من حقّي أن أجاهر بفلسطينيتي !!

لا يحق لك أن تعترف بفلسطين ولا تعرف العلم الذي
لَطالما كان رفّعه في وطني مئات الشهداء وخراب
الآف البيوت .

مَضَت سَنَةٌ وَهُوَ يُوَاجِه التَّلَامِيذَ ، كُلُّ مِنْهُمْ يَرْفَعُوا
أَعْلَامَهُمْ إِلَّا عُمَرُ كَانَ يَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَنْتَظِرَ حَتَّى
يُحَدِّثَ اللَّهُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ، فِي مَرَّةٍ أَقْدَمَ بِكُلِّ جَرَأَةٍ عَلَى
رَفَعَ عِلْمَ فَلَسْطِينَ كَانَ يَوْمَ الْأَرْضِ ال ٣٠ مِنْ آذَارِ
!!!!

عَاقِبَهُ الْمُدِيرُ بِفَصْلِهِ بِحُجَّةٍ إِنَّهُ يُثِيرُ الشَّغْبَ وَالشُّبُهَاتَ ،
وَإِنَّهُ مِنَ الْإِرْهَابِيِّينَ حَتَّى فَصَلَهُ مِنَ الْمَدْرَسَةِ بِشَكْلِ
كَامِلًا ، وَأَخَذَتِ الدَّوْلَةُ الَّتِي كَانَتْ مِنْ أَسْبَابِ ضِيَاعِ
فَلَسْطِينَ بِإِجْرَاءَاتٍ بِسَحْبِ إِقَامَتِهِمْ مِنْ وَطَنِهِمْ
وَتَرْحِيلِهِمْ مِنْهَا إِلَى دَوْلَةٍ أُخْرَى ..

غشيان ذاكرة

عَصْرِيَّة ذَاكَ الْيَوْمَ كَانَ تَتَقَيَّ بِكُلِّ مَا فِيهَا مِنْ عَهود
تُورَاتِيَّة زَائِفَةٍ كَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ " كَذَبَ الْيَهُودَ وَلَوْ صَدَقُوا
" يَمَارِسُونَ حِيلَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ فِي تَمْرُدِهِمْ وَطُغْيَانِهِمْ
الْمَرِيرِ ..

الْحَرْبُ لَا تَزَالُ تَطْلُقُ الْعَنَانَ فِي

جُوفِ السَّمَاءِ وَالْقَذَائِفِ اللَّاهِبَةِ تُدَاعِبُ السَّمَاءَ بَنِيرَانِهَا
الْقَاتِلَةَ فَوْقَ الْخِيَامِ وَالْبُيُوتِ وَالشَّوَارِعِ ، وَالْمَقَابِرِ لَا
يَحِقُّ لِلْمَوْتَى أَمْ يَمُوتُوا ! لَكِنْ ثَمَّةُ أَوْرَاقٍ رُمِيتْ مِنْ
أَعَالِي السَّمَاءِ بِأَنَّ الْمَكَانَ آمِنٌ وَالرَّحِيلَ مِنْ مَدِينَةٍ إِلَى
أُخْرَى أَمِنَ ، وَالْكُلُّ يَنْتَظِرُ تِلْكَ اللَّحْظَةَ حَتَّى يَنْتَفِقِدُونَ
مَنَازِلَهُمْ فِي مَنَاصِفِ الْمَدِينَةِ الْحَزِينَةِ !

أَرْبَعَةُ شُبَّانٍ فِي أَوْجِ شَبَابِهِمْ، يَهْرَعُونَ إِلَى بُيُوتِهِمْ حَتَّى
يَطْمَئِنُّوا عَلَيْهَا ، رُبَّمَا تَكُونُ قُصْفَتْ وَأَصْبَحَتْ رُكَامًا ،

أَوْ غَدَت تَكَنَّاتٌ عَسْكَرِيَّةٌ لِنَتْلِكَ الْجُنُودِ حَتَّى يَسْتَهْدِفُونَ
مَا طَابَ لَهُمْ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ الَّذِينَ لَا حَوْلَ لَهُمْ إِلَّا
بِقُوَّةِ اللَّهِ .. الطَّائِرَاتُ الْمُسِيرَةُ هَاجَمَتِ السَّمَاءَ ،
وَهَاجَمَتِ الْمَدِينَةَ بِأَكْمَلِهَا تَقْصِفُ بَعْشَوَائِيَّةٌ غَيْرَ مَعْهَدُودَةٍ
تَنْتَرُ وَحْشِيَّتَهَا عَلَى كُلِّ حَيٍّ ، أَسْتَهْدَفَتْ ثَلَاثَةً مِنْ
الشُّبَّانِ ، طَارَتِ الْأَشْلَاءُ فِي عَنَاقِيدِ الْأَرْضِ ، غَدَا
رَمَاداً لَا مَعَالِمَ وَلَا أَجْسَادَ تُذَكِّرُ لَهُمْ ، لُحُومَ بَشَرِيَّةٍ ،
تَتَنَاثَرُ مِنْهُمْ الْمَسْكُ .

تَبْقَى وَاحِداً ، الْخَوْفُ نَالَ مِنْهُ ، مَصِيرُ رِفَاقِهِ حَتْمًا
سَيَصِيبُهُ ، لَمْ يَقْوَى عَلَى السَّيْرِ ، أَقْدَامُهُ لَمْ تَعُدْ تَسِيرُ ،
دَبَّ السُّقْمُ فِيهِمْ ، زَاحِفًا ، يَهْرَبُ مِنَ الْمَوْتِ ، مِنْ
الظُّلْمِ ، يَرِيدُ الْعُودَةَ إِلَى خِيَمَتِهِ وَنَزْوَحِهِ !! لَا يَرِيدُ أَنْ
يَمُوتَ .. لَا يَزَالُ شَابًا !!

طَائِرَةٌ مُسِيرَةٌ مُوحِشَةٌ قَذَفَتْ صَارُوخًا عَلَيْهِ تَطَايِرَاتُ
أَعْضَاءِهِ وَأَشْلَاءِهِ فِي كُلِّ الْأَرْضِ ، اسْتَشْهَدَ خَائِفًا ،

مذعوراً، وحيداً ومخذولاً.. وهو في طريقه إلى بيته

!!

عائداً إلى حيفا

عائد بها

مَنْ أَنَا؟ ومن ذا الذي سأل ذا السُّؤْلَ والسُّؤَالَ؟ من ذا
الذي يُشْفِي كمد المتبُول ويفرج قيد المكبُول ! من أنا؟
أهشيمُ الفِطْرَةِ التي لم يَذَرْ لها عصفُ غسيلهم للنُّهى
دياراً؟ أم خلدُون الرضيعُ الذي بكى على تلك السَّرِيَّةِ
ثم طُمِسَ بعد ثوانٍ وحل مكانه دافيد.. ملاكٌ وقع في
برائثِ الجحيم فشكَّلتُهُ لهيباً يسهبُ ضِرامَها، فغلَّفتْ
فطرتَه، وقتلها بيديه، كما قتل نفسه، ولا تعجب إن لم
يقصدِ المهزوم هذا الذي يخاطبك بلفظ "نَفْسِه" نَفْسَه،
بل إخوته، دمه وجلده.. وهل يوجد أبلغ من وصف
النفسِ في {ولا تلمِزُوا أَنْفُسَكُمْ} لقد لمزت نفسي وقتلتها
وذريتُ أشلاءها على الطرقات دُون جفن يحنُّ ولا كبد
تئنُّ !

مالذي أحيى فُتَاتِ الفِطْرَةِ الذي كان يقبَعُ في أعمق
قُوتِ الرُّوحِ، ومالذي يُمزِّقُ نياطَ قلبي الآن وأنا أسمع
خُطواتَ رحيلِ أولَئِكَ العجُوزين على الدرج
المُهترِئِ، لِمَ ينخر دَوِيُّ خُطواتهم جِبيني ويفتَتُ
كَيْدي.. لِمَ تجلَدَتُ قبل ثوانٍ بِبرودٍ وعجزت على
الصَلَدِ الآن؟

كَيْفَ لِمَ يهزمني توسلُ أصحاب الأرض الذين أرديتُ
بهم أشلاء وصرعى.. وهزمتني مُقل تلك السيدة
صَفِيَّة، شيءٌ ما في عيونها المُسَهدة كمداً أطاح بدافيد
وأحيا خلدون، وكان عبق رائحتها يملأ البيت، مسكٌ
مخلوط برائحة الأم.. لم أعرف له وجوداً أبداً مع هذه
المرأة التي اعتبرتها أُمي لِسنوات.. لفحني عبق صفة
مُذْ طلوعي الدرج.. ذَلِكَ أن انهزامي بدأ لحظئذٍ ولم
أبه به.. بدأ ينخر جِبيني دون صوت.. وهاهُوَ ذا
الآن كجَنزيرٍ يدهسُ عِظام رأسي بِبطئٍ.. كان عبقها

بَتَّاراً عَلَى نَعْمَتِهِ.. كَالشَّعْرِ يَنْبَعُ مِنْ خَفَوْتِ لَفْظِهِ
عَلُوهُ !

لِمَ صَمَمْتَ حِينَ إِهَانَتِي لِهَمَا؟ لِمَ لَمْ تُعَاتِبْنِي بِتَوْبِيخِ
وَزَجَرَ كَانَ أَقْدَرُ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ هَذَا الْأَلَمِ الَّذِي يَنْخِرُ
كِبْدِي الْآنَ أَوْ يَزِيدَ ! الْمُهْمُ أَلَا يَبْقَى ثَابِتاً.. أَنْتَ تَدْرِي
ذَاكَ الْأَلَمِ الثَّابِتِ الَّذِي لَا يَنْفُكُ عَنْكَ وَلَا يَبْرَحُ..
يُذْيِبُكَ بِثَبَاتِهِ.. فَتَتَمَنَّى لَوْ أَنَّهُ يَزِيدُ عَلَى أَنْ يَبْقَى ثَابِتاً
غَيْرِ دَارٍ بِكَ.. ! لِمَ صَمَمْتَ بِكَمْ؟ لَقَدْ أُبْرَزَ ذَاكَ الْعِتَابِ
الَّذِي لَمْ يَسْلُكْ طَرِيقاً مِنْ فَمِهَا غِيَابَهُ.. لَقَدْ أُبْرَزَهُ غِيَابَهُ
حَتَّى قَطَعَ نِيَاطَ ضَمِيرِي بِخَنْجَرٍ حَامٍ !

تَتَنَاءَتِ خُطَوَاتُهُمَا.. أَكَادُ أَسْمَعُ زَفِيرَهُ الْغَاضِبِ وَشَهيقَهَا
الْخَافِتِ.. كُنْتُ وَأَقِفُ عَلَى خِيْطِ دَقِيقِ بَتَّارٍ بَيْنَ النِّهَايَةِ
وَالْبِدَايَةِ.. أَنْ أَتْرِكَ الْخُطَوَاتِ تَتَنَاءَى حَتَّى تَغْرُبَ، أَوْ
أَهْرُولَ لِهَمَا لِنُشْرُقِ بَدَايَةَ مَا لَا أَدْرِي كَيْفَ وَلَكِنْ قَدْ..
لَمْ يَتْرَكْنِي ذَاكَ الْخَنْجَرِ الَّذِي يُقَطِّعُ نِيَاطِي أَنْ أَكْمَلَ
فِكْرَتِي.. لَا أَدْرِي مَتَى تَيْسِرُ لِي نَزُولَ الدَّرَجِ بِهَرُولَةٍ

ولحاقهما قبل أن يفتح ذاك السيد الغاضب الذي أحمل
نفس ملامحه باب السيارة، وضعت يدي على يده في
برهة توقف فيها الزمن لأمنعه من فتح ذاك الباب..
رفعت رأسي لنافذة بيتنا.. أقصد بيتهما الذي يعرفهما
ويتكرّر لنا الآن.. وجدتها تطل ابتسمت بحزن وأومات
برأسها لي في قول تُضمّره بإيمائها " اذهب إلى حيثُ
الحقيقة.. اذهب إلى حيث تنتمي.." ابتسمت لها.. ثمَّ
استدّرت إليهما وقلت بتبات.. ويشهد الله أنها أثبت
وأقوم لحظة في حياتي " إن لم يكن لكما مانع، أريد
أن أقضي معكما هذه الليلة" شعرت بيد لمستني بارتعاد
ثمَّ حيدت بخوف وكأنما لُسِعت.. كانت يدها الشريفة
والتي ربّت علي فرحاً بما سمعت مني ثمَّ تراجع
حينما تفكرت ببراءة أنها ليس لها حق في !

ابتسم ذاك الرجل، وفتح لي الباب.. فقلت مُعتذراً
"سأجلس معها في الخلف إن لم يكن لك مُشكل في
ذلك" فأوماً بتعب يغشاه فرح مُضمّر كأب ضاع طفله

فوجدہ بعد ساعات طَوَالٍ .. وقد كان كذلك غير أن
الساعات كانت سِنُوناً ثَقِيلَةً ..
خاتمة لكتاب غسان كنفاني .

أجساد مُخططة

وأخيراً، عثرت أمي الشابة على قلم حبر أسود تمسكه
بيدها الراجفة، الكمد قد فطر قلبها الضائع في غيابة
البيت.

اليوم ال خامس من الحرب، والقصف يشتد ويأكل
لحوم البشر ويحولها إلي فتاتٍ إي لا أحد يستطيع أن
يتعرف على جثة عائلته سوى بالأسماء قبل الموت.

أحضرت أمي قلم الأسود بعدما كنا نخطط به في
المدرسة أصبح الآن الوسيلة الوحيدة حتى يعثر علينا
طواقم الطبية كي يتم التعرف علينا! حتى لا نصبح
مجرد أرقام بالية تمحي مع قترت الأيام العسرة.

ستبدأ أمي بالكتابة على يدي أول:

الاسم: ندى.

العمر: خمسة عشر عاماً.

زمرة الدم: - O

مكان السكن: حي، بناية.

ثم بدأت بأخي محمد الذي كان يصغرني ببضع سنوات قليلة 10 أعوام وأختي الأكبر عشرون عاما، شابة جامعية ضاع حلمها من قذائف الهاون اللاهثة التي التهمت الجامعة وحالتها إلى ركام.

أما أخي الرضيع أتى إبان الحرب والسماء كأنها وردة كالدهان من شدة الموت والدماء:

تهدت وقالت:

لا تكتبوا اسمه على يديه الصغيرة، أنا سأحضنه
سيعرفون إنه أخونا، سيبقى معي أنا. لم تهملني أمي إلا
دقائق بعدما استمعت إلا حديثي وقالت في ابتسامة
تخالطها أنات:

تخافوش، كتب على كل جدران البيت أسماؤنا، واسم
والدكم الشهيد المقاوم، وعلى كل جسدي، حتى لو
أشلاء سيجمعون سيجمعون،،،.

نزوح من نوع آخر

لمحته على بعد أمتار قليلة من محاذاة النافذة التي تطل
على البيوت المُستهدفة من غارة صهيونية ، يتصعب
عرقاً ، جسده هزيلاً ، أبان عليه أثار المجاعة التي
تأكلت أمعائنا ، ونال منا السقم .

لم يكن سوى لحظات كلمح البصر ، استهدفت طائرة
مُسيرة البيوت ب غارة مسمومة ، بدأت السماء وكأنها
من أهوال البعث ، تصاعد الدخان من أفواه البيوت
أصوات صراخ الثكلى ، سيارات إسعاف تحمل أشلاء
مُمزقة بقي نصف منها تحت الركاب .

خَرَجْتَ من البيت بسرعةٍ حتى لا أغدوا بجسدٍ غير
سليم ابحث على مأوى صغير ، آمن ، لكن لا آمان
هنا الكل سوف يموت .

نَظَرْتُ إلى المارة والإرهاق قد باتت على مَلامحهم،
جاء ذلك الرَّجُل الذي رأيته قبل هذا الاستهداف وهو

يبدو عليه قرابه الستين عاماً ، تبين إنه بروفيسور
شرعية إسلامية في إحدى الجامعات هنا في المدينة .
يسأل والخوف والحزن يأكل عيناه :

هل رأيتي سكان أهل البيت هذا ؟
أجبتُه ولم أكن أعلم بأنها عائلته بحسرة وكمدٍ في قلبي
:

"وليعلم الله الذين امنوا ويتخذ منكم شهداء "
اصحاب هذا البيت استشهدوا قبل لحظات وقضوا
أشلاء .

صرخ وكأنه روحه تخرج من جسده :

يا الله ، لم يبق لي أحدا .

كان المُستهدف عائلته .

الشتاء المسروق

هذا الشتاء مخيف وصوت الرعد يخفيني أكثر من أي وقت مضى , فنحن في موسم الحروب لا أعلم إن كان في الخارج صوت الرعد أم غارة جديدة تحلق بي في السماء.

نظرت إلى السماء من نافذة البيت المدمر وكأن رداء الليل المظلم مزقته تلك الطائرات الحربية , يتقيء النيران من كل حذب وصوب .

متى كبرت يا رغد ؟

كيف غدوتي أما لشقيقتك الرضيعة وأنت ابنة الخامسة عشر ؟

جلست أفكك ذاكرتي التي أنهكتها غبار الحروب الثقيلة , ربما لم أنسى ذلك اليوم أو ربما سيبقى شبح ذاك اليوم يطاردني , في كوابيسي , وفي الشوارع , في موقد النار التي أطهو عليه , في محطات المدينة

الهالكة ، سيطاردني عندما يأتي الشتاء ، وعند أول ما
تأتي السماء برعد .

أغمضت جفوني بشدة .

أصوات الاسعاف ، الشبان يصرخون على بعضهم
البعض ، الصحافة ، الكاميرات تلتقط صور إلى
الأشلاء في كل مكان ، لحوم عائلتي التصقت بين
النوافذ وتحت الركاب .

أبي وأمي

أما أخي فقد كانت جمجمته هي الناجية أما جسده لا
أعلم ماذا حل به ، أن كان بقي جسده تحت الركاب أم
أكلته الحيوانات الجائعة .

كُنت الناجية وأختي الرضيعة برفقتي ، لم أكن في
البيت .

قال لي أبي :

أذهبى إلى بيت عمك في الشارع المجاور ، حتى إذا
أتى الموت لم يمحو أسم العائلة من السجل المدني ،
حتى يكون هنالك جزءا من الحقيقة .

نحن لسنا أرقام يا رغد ...

نزعوا خيمتي الوحيدة ..

وُبُتِرَت يدايَّ ...

وَأَسِيرَ بِنَصْفِ قَدَمٍ ...

وَضَعُوا الدَّقِيقَ لَطِیور ..

ثم قالوا لي :

أَلسَتِ أَنْتِ مِنْ بَاعِ وَطَنِهِ ؟

أَمْرُونِي بِأَنِّي أَطْلُقَ الرِّصَاصَ

ثم تعالت ضحكاتهم عندما علموا

بأن لا يد لي .

ولا هُويّة .

ولا بيت .

ولا دقيق .

خطيئة لا تُغفر

خَطِيئَتُهُ الْوَحِيدَةُ بِأَنَّهُ فِلَسْطِينِي أَتَى عَلَى أَصْوَاتِ
الرَّصَاصِ وَالْعُبُوتِ الَّتِي تَتَهَشَّ جَسَدَ سِيَارَاتِ الْغُرَبَاءِ
الْمُدْرَعَةِ ، لِعِبْتِهِ الْمُفْضَلَةِ الْمُقْلَاعِ حَتَّى يَتِمَكَّنَ مِنْ
إِصْطِيَادِ جُزْءٍ مِنْ وَجُوهِهِمُ الْقَتَرَةِ .

اتعلم يا ولدي عن غسان الصغير !

الذي غدا شاباً ؟

لم يعلمه أحداً في القرية سوى قليل الكلام شديد الحكمة
يحرص على تعلم دينه وتاريخه في آن واحد ، لم
يُشَبَّه الأَطْفَالُ الْبَقِيَّةَ حَتَّى مَجَالَسَتِهِ مَعَ صَغِيرِ أَشْبِهِ
بِالْعَدَمِ !!

عائلته كانت خائفة عليه كثيراً ، فهو يحب البلاد كما
لو إنها شيء من روحه ، يقول دائماً :

لا شيء أغلى من فلسطين !

ويردد// طَلَّت الباردة والسَّبْع ما طَل .

يُخِيلُ لَهُ بِأَنَّهُ سَتَأْتِي يَوْمًا بِبَنْدَقِيَّتِهِ لَامَهُ وَهُوَ لَا يَعُودُ ،
أَصْرَ عَلَى الْجِهَادِ ، لَمْ يَرِدْ أَنْ يُكْمَلَ حَيَاتُهُ عَلَى
حَوَاجِزِ الْبَلَدَةِ ، الْاِقْتِحَامَاتِ اللَّيْلِيَّةِ ، إِذْلالِ الْأَسْرَارِ ،
حَرَائِرِ تُهَانِ كُلِّ ذَلِكَ كَانَ يَكْتُمُهُ فِي قَلْبِهِ الْجَرِيءِ عَلَى
الْحَقِّ .

عَزَمَ أَمْ لَا يَمْضِي هَذَا الْعَامَ حَتَّى يَسْتَشْهَدَ فِي زَقَاقِ
الْمُخِيمِ ، أَسْمُهُ النَّاسِ حَارِسِ الْمُخِيمِ الَّذِي يَأْبَى الْمَوْتَ
..

هَاجَمَ عَصَابَاتُ مِنَ الْجُنُودِ فِي طَرِيقِهِمْ إِلَى مَسْتَوْنَةِ
الَّتِي أُقِيمَتْ فِي بَلَدَةٍ قَرِيبَةٍ مِنَ الْمُخِيمِ وَبَدَأَ يُصِوبُ
عَلَيْهِمْ بِطَرِيقَةٍ هَسْتَرِيهِ ، قَضَى عَلَى خَمْسَةِ مِنْهُمْ !
رِصَاصِهِمْ نَهَشَ مِنْ جَسَدِهِ

وَوَاعَدَ الدُّنْيَا شَهِيدًا

لم يكن يعرفه أحداً في البلدة !

أصبح يعرفونه العالم .

الثائر يا ولدي الصغير لا يموت في هذا الوطن !

يحتاج فقد إلى تخطيط حتى تأكل البنادق من دماءهم .

فلسطين أُشْتَقَ أسمه من بكاء الأيامي ، وأطفال
الصغار ، من ضحكة أعرابي ، وخراب البيوت
والديار .

فلسطين

اسم

عذب

قُتِلَ

مظلوماً

مُضْحِياً

شاهداً

شهيداً

يتيماً

مقهوراً .

ما هو الوطن ؟

هو عندما يسألكُ أحداً عنه

تقل

لي

بيت

حاكورة

ومجل

زيتونة

وبندقية

لم يكن هُنالك أحداً ، كان لي وطن ، كان لي بيتٍ وقلمٌ
ولي مكتبةٌ أكتب بها عن وطني .

أما الآن

في خيمة بعيداً جداً عن العالم الذي ظننتهُ آمن ، بعيداً
عن فلسطين ، قريباً من الجنة .

تعلمت أن أحب طفولتي، وأن أحب البسطاء، وأن
أرتب خارطة هذا الوطن، وأن أقف في صف الفقراء.

غسان كنفاني.